

تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

الاستاذ عبدالعزیز بن عبد الله

واصل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءت من طريق القيروان التي بدأت تنصر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقامت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق واندالك من روائع امتزج فيها المنصران الفارسي والروماني واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطارها الجديد امكنا القول بان الشام كانت ينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر في عهد الادارة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشاتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتب الادارية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول مبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمانيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقبائرها ومسجديها مظهرا خافتا لعاصمة دمشق .

عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الان كالمملكة الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالدساكر والانتصار في الاكل على الكسكس والميد وشرب اللبن والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاقواس والخناجر والدرفقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى النساء بالاسورة والمعقود وتمتاز المرأة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية وبرز الاطوار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الاولى بمسادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختطاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدث البربر الى التفكير في وضع احرف « تفتاغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونثف من العبرية لم تترك اثرا يذكر في اللهجات المحلية .

(1) ماضي افريقيا الشمالية - كويبي ص 148 .

صالح الحميري في تكور (3) في نهاية القرن الاول
استمد في تصميمه من جامع الاسكندرية التي ظلت
مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي احمد
البدوي دفين طنطا وكانت البساطة آنذاك هي طابع
الفن المعماري الذي لم يعرف بمدد المقرنصات ولا
التماريح العربية .

والواقع ان انعدام الاقتباس من الطبيعة
والامعان في دراسة الرياضيات ونزعة الإبداع حدثت
مسلمى الاندلس والقيروان ومصر لم المغرب الى
التسطيرات الهندسية الساذجة التي يظهر انها
وسمت الزخرفة في اوائل العصر الادريسي وكان
استمرار الصراع في الاندلس بين العناصر
السلالية المختلفة من عرب وبربر وفوط عائقا دون
تفتق الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات (4) على
تأسيس فاس حتى انحدرت الى المغرب ثلاثمائة
اسرة قيروانية تلتها بعد اربع سنوات ثمانمائة عائلة
جاءت من ارباض قرطبة معظمها من الفلاحين
والمزارعين الذين استقروا بعدوة الاندلس ووصل
بعضهم الى فازان بالاطلس انتجاعا للحقول والمراعي
الخصبة واشجار التوت لتربية دود القز وصناعة
الحرير بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من
الفلة الذين اقاموا في مدوة القرويين الخلايا
الاولى للحرف والصناعات اليدوية مدرجين بذلك في
المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك
في التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط
وإذا اعتبرنا ان الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيرا
عما كان عليه من حيث الهيكل العام فاننا نلاحظ ان
عدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة
والاجتماع ففيها القياسيات والحرف والمدارس
والزوايا والفنادق ويبلغ مدد احيائها اثنى

وسواء اكان هذا الاقتباس مباشرا او بواسطة
فان الفاظا فارسية دخلت منذ هذا العصر الى المغرب
ودخلت معها مسمياتها وقد اشار الثعالبي (1) الى
نومين منها :

1 - منسية وهريتها محكية اوصلها الى مائة
وواحد واربعين منها البياع والدلال والبقال والجمال
والطراز (الدراز بالمغرب) والخياط والتند والبخور
والغالية والعناء والمضربة والتمري والريبة (الريبة
بالمغرب) والخروج والدواة والرفع والفتيلة والمجمرة
(المجرر بالمغرب) والزراق (انتشر خاصة بالجزائر)
والطبل والقنية والهريسة والمصيدة .

2 - اسماء تفردت بها الفرس فعرّبها العرب او
تركوها منها الابريق والطبق والتصمعة والسندس
والياقوت والبلور والسמיד والكمك والكنجيين
والجنجيين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل
والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور
والقرنفل .

كما انتقلت الى المغرب في نفس الفترة من
الشام مصطلحات رومية قليلة كالستان
والقسطاس والبطاقة والاسطراب والقنطار والقرمود
والترباق والقنطرة والقيطون (2) والذي يجعلنا
نرجح وجود هذه اللفاظ في المصطلح الداوج
بالمغرب منذ هذا العصر هو ان معظمها يمثل المظهر
الجديد للحضارة الاسلامية التي بقي الشعر والشعراء
في منأى من وصفها لانهم حتى في دمشق ظلوا في
ابراجهم العاجية يكون في اسلوبهم الجاهلي على
الاطلال ويتفنون بالماء الاسن في منقوشان المدينة
الناشئة . واول مسجد على النسق المعماري
الاسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سميذ بن

(1) فقه اللغة طبعة 1378 - 1959 - القاهرة ص 450 - 455

(2) دار القيطون بفاس اسسها المولى ادريس

(3) مما يبرز تأثير الاندلس احداث السوالمى الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة تكور
المسالك والممالك للبكري طبعة الجزائر 1911 ص 97 .

(4) تبلغ الاسر الاندلسية التي هاجرت الى فاس عام 202 هـ \ 818 م اربعة آلاف حسب عبد المالك
الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص 25) ودوزي : تاريخ مسلمى الاندلس 1932 ج 1 ص
301 او ثمانمائة (هنري طيراس - تاريخ المغرب ج 1 ص 118) بينما بلغ مدد الاسر الافريقية
التي جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة ويعتبر ان عدد الربضيين تراوح بين اربعمائة
وثمانمائة اعتبارا للفظ المحتمل الناتج من اضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين
المدونين وقد تحدث المقرري في النسخ (ج 1 ص 318) عن الوقعة التي ادت الى طرد الاندلسيين
فذكر ان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لدائه فخله العلماء بقرطبة
فاجلاهم عن الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ومنها الى جزيرة اقريطش .

مشر مقابل نصفها في عدوة الأندلس و 17 حماما
موض سنة و 96 كتابا قرانيا بدل 24 وست مدارس
بدل الثنتين (5) .

هذا وان جامع القرويين الذي اسى عام
245 هـ مع شبيهه جامع الأندلس على يد ام البنين
واختها مريم الفهرية القيروانيين لم يكن يثير الانتباه
بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين
هذا نصيحه الغريب الذي تتوازي بلاطه مع القبلة
على فرار مسجد الشرفاء الأديسي وجامع ابن
طولون بالقاهرة وجامع بعلبك ودمشق وقد اضاف
اليه الناصر الأموي عام 345 اي بعد مرور قرن كامل
على بنائه انني مشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى
مكانها الحالي مفضيا بابها «بصفايح النحاس الأصفر»
مع «قبة صغيرة» محلاة بتفافيح موهة بالذهب» (6)
وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي
البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة
حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي
ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة
والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (7) بالأندلس
كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية
التي بدأت تتخذ بالعاصمة الأديسية سمات جديدة
في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة من

اصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المسافات الاموية بجامع
القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر
أديسية كالبصرة واصيلا أصبحت تنافس مدينة
فاس .

ومن الصعب ان نتعرف على العناصر الحضارية
والمصطلحات التي تسربت الى فاس في القرن
الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون
عرب ايشال الحميدي صاحب جلدوة المتبسي
وابن غالب صاحب فرحة الأنفس والروض المطار
للحميري ونفع الطيب للمقري الكثير من ذلك بالنسبة
للأندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الإدارة
والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة
والاجتماع وال عمران واول ما يبده الباحث حتى
بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية
بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط
حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط
كالجامع والصدقات والامشار والاموال المرسومة على
المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيع
الاسواق والمكوس والشرف (8) او الامين ودار
السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا ان
تقارن بين مصطلحات هذا العصر والتماير المغربية
دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها

(5) ذكر ليفي بروفنسال ان الأندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة
الحضرية كالبنا والبناء التقليدية (فاس قبل الحماية (Fès avant le Protectorat) وقد لاحظ
لوطورنو من (205) انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الأندلسيين قد نقلوا
رفقهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم « وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني
ميد الوهاب في كتابه « بساط المقيي » صورة من حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها
(يوجد شبهه بفاس وهو سماط المدول الا انه اصفر منه) وحماماتها العمومية (49حماما) ومصانع
الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم اصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار
الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام في تونس او قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ
الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية ان الطبقة المتعدنة الفنية من الأندلسيين قد نزلت مدينة
تونس واختلطت باهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع من الموحدين . وقد ذكر المقري من
ابن غالب (نفع الطيب ج 2 ص 764) ان اهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع الريقية فعال
اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وخرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء
وعلموا اهل البادية اشياء جديدة .

ومعلوم ان الأندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم -حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط - تجارة
الاغذية ويضمون يدهم على الحاصيل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية
رواج اموالهم .

(6) زهرة الآس ص 37

(7) ابن حوقل - طبعة Goege ج 2 ص 77

(8) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 82) .

اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بتميره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب والماج » (13) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كنموذج للفن في اروع مجاليه .
وهكذا فالنقطة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة اللثمين وتقسفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسيقى زرباب الذي احدث في الاندلس ثورة جذرية في العادات فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي - وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (14) لم تفتح للشقافة عدا القليلات امثال زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فانو وام هانيه بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (15) بل استاذة عصرها (16) وام عمر وبنت ابي مروان بن زهر طيبة النساء في البلاط الموحدوي وورقاء الفاسية الادبية الشامرة (17) وزينب القرقولية استاذة القراءات السبع بمراكش والفمات وزينب بنت يوسف ابن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشعوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء غرناطة يشهدون الحفلات العامة سافرات ويسفن بوجودهن عليها روعة وسحرا وبشمتن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية ، كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب غير ان الموحدون قفزوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم مما ابدوه في البداية من روح التزم

مقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل في الديوان) ونحص السرادق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعث العسكرية وعقد الالوية) والمهرجان (عيد موسمي منه المنصورة التي تعرف بالمغرب) على ان معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاشباب والمصنوعات اليدوية وغيرها (9) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور ابن ابي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استمدى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (10) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لمد قنطرة تسيقت (11) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (12) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية الى المدد الاندلسي غير ان من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لان جامع القرويين نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والاجر والجبس عند تجديده على يد محمد ابن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر ايام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستسافتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي

(9) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 3 بكتابنا الصادر في الموضوع والذي نشره معهد البحوث والدراسات العربية بعنوان : (تطور الفكر والحضارة في المغرب الحديث (1969) .

(10) زهرة الاس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .

(11) الادريسي - مقتطفات من النزهة - طبع الجزائر 1957 ص 69

(12) الاستبصار - ترجمة Fagnan ص 179

(13) زهرة الاس ص 42

(14) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .

(15) الدر المنثور في طبقات ربات الخلدور ص 165

(16) الاحاطة لابن الخطيب

(17) جذوة الاقتباس ص 335

(18) فاضافوا روائع جديدة الى المائر الاموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتيبة بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الفناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة ونغرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عبد المومن (19) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Basset) اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي « ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفن المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (20) وبذلك تميزت الوحدة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصاراة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الاساسية لنصف سكان الحواضر (21) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا تقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية (22) او حضرية ممدودة مثل بعدي (اي اسكاني بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي

السواقي الصحراوية) وتكموني (صانغ) وقراشلي (حلاج) في حين توخر بالالفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكسي (مصلح المنجانات) وغواسلي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما يتيف على المالة في قلبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبغ) والحرار والحرث والحمار والحمالي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرمح المائية) والطاھوني (صاحب الطحنة او الطاحونة التي تدار بحركة بفل او حمار) والرخامي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والمشاب والتطارني (بائع اقطران والبلاد (صانع اللبذ) . اما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من اصل اندلسي) ودار المميان والمرفطار وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشاي) ومناصر الزيت وكعب فزال (فارسي) والبلاجة (صانع الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجمابية (لصنع جماب المسدسات) والسراير

(18) وقد امر المنصور الموحد « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت . . » (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81) ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 3 094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وفرن الخبز 1170 واحجار صنع الكافد (اي الورق وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (زهرة الاس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الارحي بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في مجمه ج 6 ص 331)

(19) المسند الصحيح الحسن ص 65 - 1925 .

(20) ويليام مارسلي (كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي

(21) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 - 1924 في كتابنا (معطيات الحضارة المغربية ج 2 ص 78 . وفي كتابه (الحناطي الاسلامية - باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) ينسج في جميع المصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبداء الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات

(22) الجاحظ يسمي العمامة لغة المولدين او البلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111)

فرت المنسوجات العربية الاقطار الاوروبية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها « اعراف المسلمين وعاداتهم » (ص 247) .

وقد شمل التمریب معظم المواد والالات والاجهزة والادوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية في العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاغشى (مخزول الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقيضه) والتكة والتنجرة والثومة (القرط) والشح والحنبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقرة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحدى بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (24) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخارف المحكمة » وهرست فيه « الاشجار المشجومات والماكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض » وما له من « الفرس النفيسة من انواع الصوف والكتان والحريير والاديم » وتزويده بالادوية والصيدالة « لعمل الاشربة والكحول » مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانبة العلاج ورعاية المنصور الموحدى الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذى بدى فى نظره مستشفيات باريس فى هفتوان القرن العشرين (25) .

وسترى كيف بلغ المصطلح العلمي اوجهه فى هذه الفترة التى ماوى خلالها العرش المغربى فى ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشونهم العلمية فى شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث بأوربه حيث ظلوا اساتذتها الرموقين طوال قرون .

لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الافمدة) الصقالة والدهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع لزودخان) والنيارة (صانعو نول النسيج) واذا خلدنا مثالا لباقي المدن المغربية فى شخص اصغر مدينة وهي ميناء ازموور لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع فى النسيج وحرف جديدة لحرفة البغازة وهم بائعو السمك بالجملة والشراحة بهم مجففو الحوت ، وهناك الفاظ مغربية اندلسية ابتكرة نجدها فى كتابت تطور الفكر والحضارة الخ . شمل القبال والقابض بدل الجمركي او الجايي وقد استند السيد محمد كرد على لهاتين لكلمتين لتندليل على اصالة الابداع اللغوي فى المغرب والاندلس (عجائب اللهجات - مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لاول هلة من مقارنة نوع المصطلح فى عاصمتي الشمال الجنوب مدى تاثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث دات تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق فى مض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع فى ذلك اذا اعتبرنا ان مدينة فاس اصبحت فى عصر لموحدين « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد فى الدنيا اكثر رافق واوسع معاش واخصب جهات منها » كما قول المراكشي بشيء غير قليل من الضلو على ان لفن بفاس اصبح مزيجا للكثير من العناصر لمربية فاذا ضربنا مثلا بالزليج الذي عرف فى الشرق الفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي صله من الاندلس كان يصنع منه بالاندلس نوع من لمفضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء (التفتح نقلا عن ابن سعيد ج 1 ص 187) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التليبس والترسيب والتنزيل اصحها عند العرب فى العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع سوري فى اصله عرف باوروبا الى الان بالفن الدمشقي Damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب العليبية

(23) « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » طبع بسلا عام 1357 - 1938 (ص 213 - 221) لعبد الواحد المراكشي

(24) نفس المصدر ص 177

(25) الموحدون Les Almohades للسيد Millet - طبعة 1927

غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البداية (اي الارياك والسواد) ظلت تسببا في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت ثرائها لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لمتطلبات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارباض حواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بترائها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين (29) بلغت في مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعامل والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنمكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الازياء ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحوا يضعون على رؤوسهم قلائس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي خيوط مدلاة او النواصة) بعد النفي العام اوائل القرن السادس عشر الميلادي لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisition) حيث اجبر الاسبان العسرد المسحين على التميز بشارة زرقاء

اما المريثيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب وانهاها واحقها بتبني التراث الموحد في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع في مجموع الشمال الافريقي (26) حيث تبلورت مدينتهم الحضرية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني 731 هـ - 752 هـ 1331-1351م الذي يعتبره الغربيون اقوى جاهل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع فرناطة النصرية وارة الاندلس ذبول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال الهجرة الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لاول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (27) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان نقدر من خلال وصف (28) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارباب الصناعات كالبنايين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصغارين والجنران المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم التجارة والصناعات المشتركة كالتوريق والتسطير) مع فروس الرخام والزليج وطباير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها الموه بالذهب والحديد المقصود «

(26) مارسى Marçais - في كتابه « L'Art dans l'Islam » حول تاريخ الفن الاسلامي ص 134 ، وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتاثير الفرناطي الموسيقى الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي .

وقد اسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحاً ومنهم محمد الفسائي الذي كان تاجراً بقيصرية واسفي يدبر حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطأ والسير والنحو والاداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (تونس عام 663 هـ) (الدليل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله من الذي كان يتممش (كلمة مغربية معناها يتممش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج 1 ص 197) .

(27) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .
(28) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كافد لتقدير الساحة (اي المساحة).

(29) في عام 1019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاغراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم اكثرهم في تونس وتطوان وسلا ولسعة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النسخ ص 101) .

ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو أيضا عادة أندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (أي العنصرة كما تسمى في العدوتين) أي 24 يونيو وذلك إلى أول أكتوبر خلال ثلاثة أشهر متوالية (النسخ ج 2 ص 752)

أما في الحقل العمراني فإن « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ - 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (31) كتبت في إبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس : فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف هذا الفن قوله :

فإنها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكان أرض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين أمامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بصفتها تماثل فضة
ملك النفوس بحسبها تصوير

وقد كتب بجدوان المصرية (32) المظلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وأرض النديم أهلة وشموسا
وكان هذا الإطار العمراني الرائع مسرحا
لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي
يجري خلالها إمداد أبناء المعوزين ويتبارى
الشماهون في تطريز شموع « يحملها صحافون -

كما يقول الفشتالي في مناهل الصفا - محترفون يعمل خدور المرائس عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالمذاري تنبعا الأبطال والإبواق وأصحاب المعازف والملاهي حتى تسوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وأمامه شموع من بياض كالدمى وحمرة جليت في ملابس أرجوان وخضر سندسية في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولديات وأشعار الصوفية وتلى قصائد شعراء الدولة يفرلها ونسبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده في ترايب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الإمام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزيون ويختم الحفل بنشر « خوان الأطممة والموائد » و « توزيع الإعطيات » وكان هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونمازقها المصطفة واستارها وكلها وحجالها المخصوصة بالذهب وحانطياتها ووصفانها وأعلاجها بأقبيهم المخصوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة (33) - صورحية لفخفة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الأثرياء حيث استفيض عن القناع المائتية والبنسية المذهبة وعن الأواني التركية والهندية والطوس والإباريق والصحاف ومباخر العنبر والمواد الشرقية بأومية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف أنحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي أفصان الرياح الفخز وماء الزهر والورد . كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الأندلسية الرائعة التي تسحر الألباب بنغماتها الشجية وتلاحنها الإخاذة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تتردد في حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتأجيج الشعور وتوقير الشراء اللغوي في الدارجة والفصحى على

(31) أي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل أي بالنقش وكانت الجدران تحلى أحيانا بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل . وفي سلانماذج من أصل فارسي أو شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوربية وكذلك في أزمور التي يرجع تاريخ نماذجها الإسبانية الإيطالية إلى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .

وهناك بناس تطريز علجي الأصل أدخلته إلى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس أما التطريز التطواني فهو من أصل بلقاني .

(32) المصرية أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا ولعل لوجود طبقات في (الابنية منذ القديم بمصر انرا في التسمية .

(33) راجع النسخة المسكية في السفارة التركية لعلي بن محمد التامجروني .

السواء فكم من تعابير تخلت الإلحان كانت أرسخ في
البواطن وأملك للوهي وكمن من الهنات ساحرة
رددتها الرضيع في حبه وربة الخلد في حجلتها كان
أثرها أوقع في النفس ولفظها اعلق باللسان من كل
قصيد يلقي في الكتاب أو درس لغوي يلقي في حلقات
المعلم .

وإذا كان عهد السعديين قد نفذت معالمه
بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فإن عهد
العلاويين الذي أقيمت فيه نفس القصور والبساتين
مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة
وجنان رضوان وأجدال بنفس انبذخ قد اتجه إلى
دمع الكيان بالقصبات والقلاع ومن أروع ما يدهك
في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس
عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفة البلاطات
الملكية وضخامة التحصينات بأبراجها ومدافعها أزاء
البرك الفيضة للتمرير والانبساط في فلكها
وزوارقها وكانت أهراء القصر تضم اثني عشر الفا من
خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل
للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازنا وقد بدانا
بالرغم من أصالة اللغة العربية بالمغرب. نسمع في
معماريات العلاويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة
فيها الكثير من الدخيل كالتقنايط (أي الهياكل)
المقبوة في الأهراء والأصطبلات المسقفة بالبرشلة
أوهي نوع من أنروافد والعوارض (Pignon) وسواني الماء
الدائرة (أي التوامير المائية) والقرايمد علاوة على
المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الأشرار
أي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود والكور
والبنب (أي القنابل والتدائف) ونصب المهاريس
والكراريس (أي المدافع المجرورة والضوئلي) لتحرير
الشغور المحتلة وبمات الباشدورات إلى طوافية (جمع
طافية) الأصنيول أو البرتفال أو «النجليز» لأحكام
الصلح ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكانجي
باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (أي

المدفعية) والبحرية المغربية بفلاطها (سفنها الحربية)
وفراكلها (أي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت
إلى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل
الكشينة والباصورط (الجوان) والطنبور والكرتينة
(الحجر الصحي) والمحلة (أي المسكر) وصاكة
الإمشار (أي رسوماها) وصقالة (أي برج) والتوافل
(الرماح) وتفرق البونب (أي انفجار القنابل)
وابستيون (34) وأنواع النقود كالبندقي في أربعين
أوقية من الذهب والفضلون (Doublon) في
النين وثلاثين من الريال (الريال Real) فيه
عشرون أوقية) والبسيطة (خمس أواق) والموزونة
(ربع الدرهم الرباعي أي نصف القرش) والسنجق
وبقسماط (سكوت) وكل تلك مظاهر للمعجزة
التي بدأ المجتمع المغربي يتسم بها حيث «أخذ
ذوو اليسار - كما يقول الناصري (35) المراكب الفارغة
والكسي الرقيقة والدخائر النفيسة وتائقوا
في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما
بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة
الاعجمية» التي تمزجت مع ذلك بمقتبسات غريبة
صالحة مثل فابريكة (أي مصنع) السكر وفابريكة
تزديح البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن
في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (التطارد
الحديدي) والتفراف وهكذا إلى غير ذلك وهكذا
بدأت تتجلى في الأفق المغربي على متبة القرن
العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قلبها
الأفريقي دون تعديل وسنرى بحلول الله خلال
حديثنا عن تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد
الاستقلال كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي
العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية وأشرابت
الإعناق إلى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من
الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت
إلى جوهر الإسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي
الحديث .

(34) استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدأ يستعملها وأنداك سلفه من
المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الأتراك فلاحظ أن أهم ما
يمتازون به هو العزوف عن العادات الأجنبية والمصطلحات العجمية حيث «امتت المصيبة في مسكر
المسلمين بالتخلق بخلق المعجم وإذا كان أصل العمل مأخوذا من المعجم فليجتهد المعلم الحاذق في
تعميره» . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

(35) الاستقصا ج 4 ص 233 بصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في
معرض باريس عام 1285 هـ (أي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من إنتاجه كالسروج
المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمطمين الذين يباشرون ترصيعه

الفكر الثقافي

(أ) اللغة والأدب

حتى تقوى ملكته في الأدب واللغة فإذا عاد إلى المغرب كن أسهامه أوفر وأبلغ في تحقيق التزاوج الفكري بين جناحي العروبة والإسلام غير أن الفكر الأدبي في هذه الفترة كان لا يزال في مخاض قد طفت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والمقائدية فسمكو المدراري بسجلماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذي أخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان وحمل أبو جيدة الفاسي في أوائل القرن الثالث التفاريع المذهبية فكان التبادل محدودا بين الشرق والمغرب عدا عن طريق الأندلس إلى أن انبثق العهد البربري حيث بدأت رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الإدريسي إلى ابن جبير وابن رشيد والمبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان ومات الآخرين (2) الذين أساروا أمجاد زملائهم في العواصم الإسلامية بما أنتجته قرائعهم وأبدوه في مناظرهم من عمق في الإدراك وبعد في النظر ودقة في التحليل في أسلوب كلاسيكي أمسى موحدا حتى ليصر على القاري أن يتبين بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتناسق المصطلحات وتجاوب الدلالات وإذا كانت هناك فروق نسبية في منهجية التفكير والوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التي سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشوف المستحدثة في الإطار المغربي .

وقد بلغ التجاوب مبلغا حدا بعض نقاد الفكر إلى التنظير بين أدباء وشعراء من الشرق والمغرب الأقصى والأندلس فمند العصور الأولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد بن هانيء في « قصد الألفاظ الرائعة والقماقم المهولة وإيثار التقدير » بينما لقب ابن هانيء بمنتهي المغرب وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب والمغرب يردد تلاحين الشرق فهذا أبو هارون موسى بن عبد الله الإغماتي الذي بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول :

لعمر الهوى أني وإن شطت النوى
لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في أقصى خراسان ناويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

(1) راشد مولاه هو الذي أقرآه القرآن وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه والدين

واللغة ورواية الشعر وأمثال العرب وحكمها (الاستقصا ج 1 ص 70)

(2) راجع بحثنا « رسل الفكر بين المغرب والشرق » (معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 72) .

وهذا المهدي بن تومرت يتمثل دوما بقول
المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
ومن شعره :

أخذت بأعضادهم إذ ناوا
وخلفك القوم إذ دموا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى
وتسمع وعظما ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع ؟

وكانك وانت تسمع خطاب أحمد بن عطية لعبد
المومن الموحد تلمس نبرات شعر حطيثة وهو
يتشفع الى عمر بن الخطاب في فلداته :

وصيبة كفراخ الورق من صفر
لم يالفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم إباد منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وإذا استثنينا محاولات نادرة فان المغرب لم
ينجب فحولا امثال المتنبي والبحتري وأبي تمام ولا
امثال ابن خفاجة الأندلسي في وصف الطبيعة :

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات
خارجية دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه
الخلجات قول ابن مجير يصف خيل المنصور وكأنه
يستعرض ما استعرضه الشعالي في « فقه اللغة »
من ترايب وتدرجات في الالوان مع مجاز رقيق :

مراسي اغنتها الحبول من الحلى
فلم تبغ خلخالا ولا التمسست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب انه
وأن جردوه في ملاءته التفا
وأباق اعطى الليل نصف اهابه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا
فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا

واشقر مع الراح صرفا اديمه
واصفر لم يمسح بها جلده صرفا
واشهب فضي الاديم مدثر
عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من
روائع بدئية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها
اليومية حيث دخلت في معجمها الدارج اسماء
عشرات الالوان كالادكن والابلق والارقط والاشخم
والاشقر والاشهل والافر والمبرقش والخمري
والبريش (أي مختلف الالوان) (3) .

وتسم خطب السياسيين المرابطين منهم
والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس
الاوتار فمن قول عبد الله بن ياسين : « اياكم أن
تجنوا وتفشلوا فتذهب ربكم وكونوا الفة واعوانا
على الحق واخوانا في ذات الله واياكم والمخالفة
والتحاسد على طلب الرئاسة » . ومن نداء وجهه
المنصور الموحد لجيشه بالاندلس يحضه على
الاستماتة : « شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين
في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيدا
ومن عاش عاش غانما ماجورا حميدا » . ففي كليهما لون
من المفاهيم وضرب من التعبيرات كاد يصطبغ بها الادب
في شتى مجاله فاستمع للقاضي أبي حفص بن عمر
يتحدث عن علم القدماء : « اياكم والقدماء وما احدثوا
فانهم عن قولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة
وقلوبهم من الاسرار محجوبة » .

ومن الاخوانيات (4) التي ضاهت اروغ ما
عرفه الشرق في العصر الفني للنشر رسالة للقاضي
عباس الى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها : « عمادي
ابا نصر منى الوزارة ووحيد المعصر هل لك في منة
تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ املا وتشكر قولاً
وعملا شكرا تترنم به الحداة ثقلا ورملا .. الخ » .
واخرى من ابن هانيء السبتي متنبي المغرب اجاب
بها ابا القاسم الشريف عن قصيدة اهداها اليه جاء
فيها : « .. والان لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا
منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبذل القلب الذي
ولم يرشح القلم الزكي وهم الانعام وهم الاحجام
وتمكن الاكداء والاجبال وكورت الشمس وسيرت

(3) اقتصرنا على نماذج قليلة من معجمنا « الاصول العربية والاجنبية للعامة المغربية »

(4) ومما امتازت به الاخوانيات عند اهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل انت وانا ..
وربما خاطبوا الواحد منهم بيمين الجمع .. قال ابن شيت في معالم الكتابة « ولا يصرف ذلك
لغيرهم اصبح الاعشى ج 8 ص 148 » .

وقال الامام السهيلي عندما خرب العدو مستقط
رأسه سهيل :

يا دار ابن البيض والارام
أم ابن جيران علي كرام ؟
راب المحب من المنازل انه
حبا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم
الدائب على حفظ كيان الوطن ولو اداهم ذلك الى
تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن
صاحب الصلاة عندما قام خطيبا في وفد الاندلس
مام الامير عبد المومن الموحدى :

هم الالى وهبوا للحرب انفسهم
وانهبوا ما حدث ايديهم الصفدا

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ
حيث اذكت نفوس الجماهير والهبت احساسهم
واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن
الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان
المريني .

والناس طرا بارض اندلس
لولالا ما وطنوا ولا عمروا

وجملة القول انه وطن
في غير عليك ما له وطر

وقد اوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا
لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا
للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قدفت به
ايدي النوى في الفقر رهن سفار

بلغته ما شاء من اماله
فسلا من الاوطان بالاوطار

صيرت بالاحسان دارك داره
تمت بالحنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله :

ودم والمنى تدني اليك قطيفها
ميسر اوطار ممهد اوطان

الجبال وعلت سامة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة
وقامت لتوهي الادب قيامة حتى اذا ورد ذلك المهرق
(5) وفرغ لخصه الورق تفنى به الحمام الاورق
واحاط بمداد مدائه الفصص والشرق وامن من
الغصب والسرق واقبل الامل وذهب لاقباله
الفرق ... »

ولم يكد يبرغ فجر العصر المريني حتى بدأ
المزيج الاندلسي المغربي يتبلور فظهر علاوة على ابن
خلدون امثال ابن الخطيب وابن زمرك ومشرات
الشعراء والمؤرخين والادباء الذين اذكت شعورهم
نكبات الفردوس المفقود وقد افاد الادب المغربي من
هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطق اللسان
وحرك الافلام واسال الشاعريات؛ ولعل من اروع
ما نظم في هذا الباب الملحون الذى نظم منه الشيء
الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن
يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى
الهلولي الذى قرض الى جانب ذلك اشعارا
وزجليات تترقرق عاطفة وحماسا .

وكان نعيب الشعراء ينسكب في مرائي
محزنة كلما استولى العدو على مفسى من مفاصي
الاندلس او مريع من مرايعه ولعل من اشد القصائد
تائيرا تلك التى نظمها شاعر مغربي او اندلسي
مجهول لم يعثر على اسمه حتى الآن لما فيها من
المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الواقع وقد
قيلت بعد سقوط طليطلة منها :

لتشكل كيف تبسّم الثفور
سرورا بعد ما بثت ثفور
لقد خضمت رقابكن هلبا
وزال عتوها ومضى الثفور

الى ان قال :

فلا تهنو وسلوا كل غضب
تهاب مضاربنا منه التحور

انترك دورنا ونفر عنها
وليس لنا وراه البحر دور ؟

رضوا بالرق يا لله ماذا
رآه وما اشار به مشير

(5) بلاخط هنا استعمال ابن هانيء لكافة مدق وهو صحيفة بيضاء او ثوب الحرير الابيض يستى
الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد
الاندلس الذي ظل منتظما نحواً من ثمانية قرون حتى
صاح بعضهم حيرة وتحرقاً :

كيف السبيل الى احتلال معاهد

شب الاعاجم دونها هيجاهها ؟
وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندي :
لمثل هذا يدوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

وقال ابو المطرف بن عميرة الخزومي بمد
سقوط بلنسية :

يحن وما يجدي عليه حينه

الى اربع معروفها متنكر
ملاعب افراس الصباة والصابا
تروح اليها تارة وتبكر

الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا

الى اللهو لا تكبو ولا تمشر
كذلك الى ان صاح بالقوم صالح
وانذر بالبين المشتت منذر
وفرقتهم ايدي سبا واصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجاجين بزوهون
يمدح السلطان ابا الحسن المريني بقصيدة ملحون
منها :

عكر فاس المنيرا الفرا

وبسن سارت بومزابم
وقال ماخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احبب معالمه

وقام منه بمفروض ومسنون
واقام مفروض الجهاد بعزيمة
تركت بافئدة العداة فلولا

والله ما ادري وقد حضر الوفي

احسامه او عزمه مصقولاً
حطت البلاد ومن حوته ثغورها
وكفى بسمدك حاميا للدار

وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد

بسيك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيبه

فبمدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحيى اجانا يخاطب
مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ بن زيدان :

يا مالكا سعدت به اوطانه

فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لغرب

ولكم على فاس الجديد الكلكل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من اشاد
محمد بن سودة الفاسي :

ما من ملك ذاق لذة راحة

الا تجلى له الهوان فيفعل

الى ان قال :

وانفض غبار الدل وارفض ثوبه

يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذي يذكرونا ببعض
حماسيات شوقي التي كتبها حيث كان منفياً في
باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وهكذا زخر الادب المغربي بمبارات والفاظ
حماسية كالعضب ومضارب النحور والسي والحرز
والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والاصفاد
والعزم والثغور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الدل
ومات اخرى تكاد تتفجر ايماناً وحيوية ولعل هذه
التبرات هي من افنى الآداب العربية في الحقل
القومي نظراً لتتابع الويلات على الاندلس وما كان لهذا
اللون من الحماسيات ان يتفتق بمثل هذه القوة في
الشعر العربي بالمشرق الا ايام الحروب الصليبية
وعند احتلال نابليون لمصر وكانت الصدمة ورد
الفعل الوطني قويين لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام
محتفظاً بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار
الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على جل اقطار
الشرقين الادنى والوسط وبقاع شاسعة على طول
الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينج من نفوذ آل
عثمان حتى المغرب الاوسط والادنى فكان من الطبيعي
ان تتمخض في المغرب على اثر محاولات الانتداء
الاجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد
منها تراثنا الفكري كنزاً ادبياً يكاد يكون فريداً في
بابه .

وقد عرف المغرب الوانا اخرى للشعر انظمت
باللق للملوك واحيانا بعمرائيات رقيقة واكبت الادب
الشرقي في عصره الكلاسيكي الذي حفل بالكليشيات
المتحجرة .

لمن ذلك قول ابي فارس الفشتالي ينوه بفتح
السودان :

جيش الصباح على الدجى متدلج
فبياض ذا لسواد ذلك يمحسق
وكانه رايات مسكرك التي
طلعت على السودان ايضا تخفق

وهي لسان قصر البديع الذي شاده المنصور
بمراكش :

سموت فخر البدر دوني وانحطبا
واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وصفت من الاكليل تاجا لفرقي
ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت باطواقي الثريا كأنها
نشير جمان قد تبتمته لقطا

وللقاضي ابي القاسم بن علي الشاطبي في مجلس
المنصور :

ما بال طيفك لا يزور لماما
وبمنعني الاحشا ضربت خياما
ابميش فيك هواذلي لسلوهم
واموت فيك صبابة وفراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالتابفة عند
ابلال المنصور من مرفه :

تردى اذى من سقمك البر والبحر
وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مهيدا
واصبح مدمور الفؤاد الندى الفمر
الى ان قال :

لئن صدقت بيضى المعالي لقد هدت
تسيء الكماة البيضى واللدن السمر

وانشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك
المجاهدين بالمدو في سبئة ايام المنصور (عام 996 هـ)

هذه سبئة حرف مروسا
نحو ناديك في شباب قشيب

وهي بشرى وانت كفو اللوائي
كافات بطلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير اصيلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعلسى
قاله ابغ في الصدا الماسولا

انضامك سيفا لحنف عدائه
وبكم هذا سيف الردي مفلولا

وفي عهد السلطان الغالب بالله السمدي زار
وزيره وابن اخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس
صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد
الحميدي واحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم
المدينة ارتجل الوزير :

اخلائي هذا المستقى وربومه
وهذي نواعير البلاد تنوح

وذاك المولى مطرح الشوق والاسى
وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
بين فوان طرفهن جموح
يمس كاملود من الروض يانع
شدهن من حول الديار يفوح

فغقب المنجور مرتجلا :

ويرتلن في العلات يختلن في الحل
ولهن انواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لاقبال حب طال منه نسروح

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتفضل
في السوالف والحدود :

فتنتنا سوالف وخذود
وهيون مدمجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها
وشعور على المناكب سود

اهلكتنا الملاح وهي طباء
وخضعنا لها ونحن اسود

ومن روائع النشر ما كتب به المنصور الذهبي الى الشيخين البدر القراني والزين البكري : « هذا وانه اتصل بعلي مغانا كتابكما الذي صدحت على انان البلافة سواجمه ومدبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت في كل معنى من المعاني افانيته ومنازعه وتالفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة ومقاطعه وابنمت بازهار العناية الربانية اباطحه الفيج واجارعه .. »

كانت بعض الالتاب والتصوت تتسرب من المشرق فتشير نقدا لاذعا لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي الى القول : « يتعين على العالم ان يتحفظ من هذه البدعة التي عمت بها البلوى وقل ان يسلم منها كبير او صغير وحد ما اصطلموا عليه من تسميتهم بهذه الاسماء القريبة المهمل بالحدوث التي لم تكن لاحد ممن مضى بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم اولى من يتحفظ على نفسه من هذه الاشياء وبدب من السنة في حق نفسه وفي حق غيره .. »

ومن نتائج النقد اللغوي ما كتبه الاجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقا على بيت ابن الرقاق المغربي :

على عاتقي من ساعديها حمائل

وفي خصرها من ساعدي وشاح

حيث استعمل هذا الوشاح في معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها في موضع حمائل السيف من الرجل وقد خطيء ابو تمام في قوله :

من الهيف لو ان الخلائل صورت

لها وشحا جالت عليه الخلائل

لانه استعمل الوشاح في الحجاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والحركة لان ذلك يدل على رقة الخصر وضمود البطن ..

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات كما كان المشاركة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب في شخص افداذه امثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرفي ويحيى الشاوي واليوسفي واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (لتحا) الفاسي ومحمد بن

الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة واحمد بن الخياط الذي مكث طويلا في القاهرة ايضا واحمد الهلالي الذي ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه . لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية يتم بعضها بعضا في هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظته المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق في ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوفل في البحث اللغوي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار وبينما غلب على تأليف المشاركة الاجاز (عدا البعض كالفزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوفلون في الاستطراد . واذا كانت صناعة التأليف قد انتهمت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق في شخص ابن ابناء المراكشي فقد حلوا ذلك (براءة نسبة من البداوة) فير ان الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظر لان التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء مهند الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد في المنهج وايغال في استظهار النصوص حيث ادى الحال في بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف في الاستظهار تجاوز التون الى معجم اللغة ولكن هذا الاسلوب الذي كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسق بين واهيته وملكته التصورية قد ضخم على المكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة اعداد الادباء والشعراء في سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة ولا يمرب هنا ان ابن القزاز البربري هو الذي صحت عليه اللغة بالاندلس بعد ابي علي البغدادي وان اهل شنقيط اقرب الى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة .

واذا اردنا ان ندرك نوع المعارف التي كانت سائدة في ذلك العصر والتي احتكرت نشاط رجال الفكر فما علينا الا ان نستعرض زمرة ممن شغلهم المهديان الغربيان امثال اليوسفي والافلاحي والتمنارتي ومبارة والمرغيشي واليوسفي والعباسي

وآل الفاسي والفساني والحلي وابن زكور وأحمد ابن ناصر وغيرهم نستتبع لنا خطوط ذلك الأطار الذي انحصر فيه النشاط الفكري .

فمن عالم يكدر في خمول موزها يومه ييسن التدريس والعبادة الى مصنفه لا يعدو شرح النصوص الفقهية او جمع تراجم الصوفية او وضع لوائح مطولة عن شيوخه واجازاته الى فقيه انصرف للقضاء او الفتيا فاحكره حديث النوازل والاقضية والخصام والشجار .

ولكنك تجد ازاء هذا النزوع الفقهي والوجهة الصوفية اتجاهات من نوع جديد تضي على المجتمع الفكري الوانا طريفة فانك تشر في هذه الفترة على دواوين شعرية وتحريرات تاريخية الى جانب كتابات في الحساب والفلك والطب فهذا عبد الرحمن التنازلي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي ويؤرخ لسوس العالة في فهرسته القيمة وهذا المرغشي يدلي دلوه في كثير من شعب المعرفة بعد ان اقام في زاوية الدلاء محفل الآداب والعلوم فيكتب في الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة من مجتمع عصره مازجا ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين التنزلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد الادبية وقد استقى الافرائي مادة تاريخ المجتمع السعدي من امثال هذه المصنفات ، وهناك نوع آخر من التصانيف يتجلى في (الدر الثمين) لمبارة حيث نجد الى جانب الديول الفقهية والتعاليق الصوفية طرائف من الحركة الفكرية المعاصرة وبرحنة المياشي يظهر اسلوب جديد في البحث يحاول ان يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء الواسع الذي يمتد الى الشرق الادنى حيث المناهج الدراسية تختلف نوها ما عنها في المغرب وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التأليف تتسم بميزات من طراز جديد فنرى المياشي يحاول ان يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو يحدثنا عن شراب البن في الشرق مشجرا الى انعدامه اذ ذلك بالمغرب كما يصف لنا يوم المحمل بمصر ثم لا يلبث ان ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم معرجا على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم ثم يدرج فوائد طريفة كاستيناس المصريات المترفات بشراء ربال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوخ هذا النوع من التأليف في الوسط المغربي يحدث السره السريع .

وقد افرق العلماء في التصنيف حتى بلغت تأليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز مميزات العهد العلوي يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف في الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والآداب ولكن اذا كانت بعض المصنفات صوره صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسي فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تتسرك مجالا لانبثاق ذائبة المؤلف مما يفقدها الروح والتممة فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير في النفس حب التطلع وروح الانسباق مع المؤلف حتى ليخيل للقاريء انه يمشي في ذلك العصر وهل هناك لوحة تاريخية تبلغ من تلك الصور المتتالية التي يرسمها اليوسي فيشخص فيها الادباء في مساجلاتهم والصوفية في حضراتهم والمبشرين في دعاويهم والعوام في خرافاتهم وتشب الرحلة البوسية رحلة احمد ابن ناصر من حيث الاضافة في الحديث عن الشرق .

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر امثال الرياني والوزير الفساني والشريف العلمي .

فالرياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو بأسلوب البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه ليكشف عن الحياة في جزء من القارة الاوربية وينتجع اسلوبه التاريخي بمنزوع جديد لانه يعاول مزج وصف الاحداث بنظرات من نظام الحكم والحالة الفكرية . اما رحلة الفساني الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت ادباء المغرب اذذاك بأساليب الحياة في بلدان مسيحية ووصفت المجتمعات الاوربية وحيات البلاطات والطبقات الارستقراطية الاسبانية ، وتجد الشريف العلوي يفرغ ادباء وشعراء بتأليف خاص فيشجع بالتصنيف اتجاهها فنيا بهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات اجراها مع النبي عشر من معاصريه كالحلي وابن زكور ومسمود المريني والقرال والبومصامي غير ان هذا (الانيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذي كان يصطبغ به التصنيف في القرن الثاني عشر وهو الانتشار وعدم التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية بقلائد العقبان للفتح بن خاقان او المنتقى المقصور لابن القاضي . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذي هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاي امننت البلاد واهلها
فله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلي مظلما :

يا رب اني ضعيف هالتي الوجع

ما حيلتي يوم هول المرض ما العمل

واخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد

الصياغة) صدرها بقوله :

انق الله ما استطعت فان

الله ربي مع الدين اتقوه

هذا مع ان للحلي مقامات عارض بها الحريري

ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة)

و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد)

والصنيع البديع وشرح المقصور والمدود وشرح

لامية العرب والمغرب المبين وغير ذلك .

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء

هذا العصر فالشاعر مسعود المريني (واعظ المدينة

المرتدي بالوقار والسكينة) الذي له تأليف في

المتصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن

الفارض يقول في مطلع قصيدته :

يا رب انك موجدي ومكوني

ومدبري ومصوري ومشكلي

وفي اخرى :

سهام الموت راشقة النبال

ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول ايضا :

طيف الخيال تعرضا

اخذ المقام واعرضنا

وائار وجدا كان نسي

طي الاضالع اجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السنين محتديا

بابن الخطيب :

سلام كنسمة مسك سرت

لانفاكم بنسيم سحر

لساحتكم ساقه مستهام

سباه سنا حنكم وسحر

ومن شعراء العصر ايضا محمد بن العربي

الشرقي (شاعر الاوان الذي لم يشتمل على مثله

ديوان) القائل في حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر

لا يطلق الا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر

اما من سلك طريقة واحدة فأراؤه فاسدة وبنائه على

غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر

الذي كان شعراؤه يستوحون من ارواحهم المضطمة

باوار التقوى وفي ذلك الحوار الذي دار بين هؤلاء

الشعراء وبين الشريف العلمي الوان شتى وضروب

مختلفة للاداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك

العصر .

وبعدما يذكر العلمي شعراء معاصرين آخرين

امثال احمد عمور نراه يمرج على كتاب العصر كالمهدي

الغزال القائل في وصف راقصة :

قامت بكأس الروم راقصة

بين الغواني رقصها يطرب

كانها والكاس في يدها

بدر تبدي حوله كوكب

وفي وصف بنتان :

انظر الى الروض وقد نثرت

عليه اوراق من الياسمين

يحكي بساطا ناعما صيغ من

زبرجد يعطوه در لمبين

ولكنه يقول ايضا متأثرا بنزعة العصر :

الموت لا شك آت

وكل آت قريب

فتب وتب قبل ان

يعتريك منه وثوب

ومنهم عمر الحراق القائل في ديوانه يفاخر

بمسقط رأسه شفشاون :

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما

نيل بمصر وما العاصي لدا حلب

في جنب شفشاون الغراء ان فخرت

بتينها وبزيتون وبالمنب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التماريض في

الضروب والاعاريض) الذي رثى وغزل وجد ما شاء

وهزل) والاديب البوعصامي (بليغ مصره وامام

الادباء في مغربه ومصره رحل الى المشرق، وطلع عليه

كابدر المشرق) القائل :

(يتصرف في فنون الكلام كثير الاقرب لا يعلم له مراد ولا يفهم من اياته الا افراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمي في انيسه امثال عبد الواحد البوعناني مفتي فاس الذي هنا المولى اسماعيل على تحرير العرائش بقوله :

الا ابشر بهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزكم الامور
وقد وصف اشرياب ائناق المدن المختلفة الى
التحرر على يد السلطان فقال :

وهو ان نادي كل يسوم
متى ياتي الامام متى يزور
وقال قبله :

اذا ما جاء سبتة في مشي
تناديه اذا كان البكود
ومنهم عبد السلام بن حمدون جوس القائل :

رفعت منازل سبتة اقوالها
تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسموا تسالها
فلقد قضيت للعرائش حاجة
مع طنجة فاقضوا الذي آمالها
وارفع لهذا الغرب راسا انه
في الضعف ما دام المدا انزالها
وقال عبد السلام القادوي :

علا عرش دين الله كل العرائش
وهد بنصر الله قصر العرائش
تلك الوان خاصة من الشمر الوطني الذي
يحاول فيه الشاعر التمييز عن آلام الشعب وآماله .
وعندما قام المشايخ ابو حفص لوقاش يدعي
الملك قائلا :

انا عمر الموصوف بالباس والندي
انا عمر المذكور في ورد الجفر
اجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها :
في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر
منها ادماء الحمار انه بشر

محي بدمع كالعقيق محاجري
شوقا لطيبة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل في ترتيب النغمات
الثمان التي عليها مدار الفناء والالغان.
ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون
القائل :

اسقياني كؤوس بنت الدوالي
ان مراني السقام لهي الدوالي
الى ان قال :

كم ليال قطعنها في نعيم
حفظ الله عهدك تلك الليالي
بين راح وشمعة ومفن
وظباء قنصتها باحتيال
ولكنه ينفل (لثرة مصر) فيقول :

رب يسر لمبدك الفتح واشرح
صدر من صدره من العلم خال
ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر
مطبوع .. واديب همام) القائل :

عديري من هوى فحسن وطيب
اراني البدر من فوق القضيبي
مليح فاتر الاحاظ طفل
صبوت لحسنه بمد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذي كلامه (يفار
منه امرؤ النيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس)
القائل :

الى كم فدمك النفس ترمي فؤادنا
بهم نضي اللحظ ازياقه هذب
الى ان قال :

فدونكم ربات قرط خريدة
مفوفة هيفاء هام بها الحب
مبرقمة لياه فضة بضة
سوى انها عذراء ناهدة مرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة
العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك
ان شعراء العصر العلوي الاول مراتب فهم بين فحل

وهذا لعمرى ابداع فى فن الاقداغ .

والشيخ رايسته
بفعل ما لا ينفسي

قلت له انت بسري
قال بلى انا بسري

ويمكن القول بان تلك الهضة الادبية الرائعة
التي همت بلاد سوس فى العهد العلوي حتى فتحت
القرايح من بعض ما انتجه الفكر المغربي - انما يرجع
فضلها للحركة الناصرية التي نشرت العلوم والفنون
الى تخوم الصحراء .

وهذه المجالة تضيق من استعراض النماذج
المختلفة للحياة العقلية فى العصر العلوي ولعل فى
كتاب (نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني)
لمحمد القادري مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان
الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

وقد ضرب الملوك الادياب بسهم وانر فى هذه
الحركة لحفظ السلطان محمد بن عبد الله الاغانى
للاصفهاني مع صحاح الحديث وامهات الكتب تركيزا
للملكة العلمية وكان فى ذلك بعث جديد للغة العربية
واصولها وآدابها وفى هذا العصر ظهر محمد بن
الطيب الفاسي استاذ الشيخ مرتضى الزبيدي
المصري الذى الف اكبر موسوعة لغوية فى العصر
الحديث هي تاج المروس فى شرح القاموس
للفيروز اباذي (6) والذي كان يصحح من املاءاته
معاجم اللغة كما فعل ابن القزاز البربري فى العصور
الاولى .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف فى
مجموعه عن سابقه فقد امتدت الى اوائله حياة
رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالي الزبيدي
الذان مات كلاهما عام 1209 وكانا نموذجا جديدا
لعلماء يحرمون على انتاج الشرق للتبحر فى علوم لم
تكن منتشرة فى المغرب الا عند الخواص وقد كان
العلمان رسولين من المغرب الى الشرق فى هذه الفترة
للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة فى القاهرة
حيث تبلورت معطيات الحضارة الاسلامية فى
الازهر الشريف ومن نبغ فى هذا القرن من رجال
الفكر ابن عجيبة الذى تحتوي فهرسته على معلومات

وفى هذا العصر كانت زاوية شرقاوة فى ناحية
نادلا محفلا للاداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء
فشملت بعطفها كثيرا من الادياب الذين وجدوا فى
ربما المقام الرحب كالافراسي الذى بدأ حياته
التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسي
وهو نموذج للنثر (الفنى) فى ذلك العصر اما الزاوية
الناصرية فقد احتفظت باشعاعها فى الجنوب وفى
(الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرهمي صور ناصعة
لائار هذه الزاوية فى العلم والاداب والكتاب ينطوي
على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منها مقطوعات
كلها تفجع على اهل الدلاء كقول العربي الفاسي:

ادار بذات السدر فى الجانب الشرقي
سقال الحيا ما دام صوب الحيا يستقى

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

الم بدرعة واختر للنزول بها
زاوية الفضل ماوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمي الشكلمطي
الرباطي :

يا حاديا اسرع بذات الزمام
وارع رعاله الله حق اللمام

فانني امسيت ذا قلق
من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال :

ورشا من آل يافث
لحظه بالسحر نافث

بخطا السين الى ناء
المثاني والمثالث

قلت جدلى بوصال
قال دع منك الوثاوث

- وتذكرني هذه الايات بالبيتين الذين ساقهما
الجاحظ فى البيان والتبيين :

(6) قال الزبيدي فى شيخه هذا: ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد
الفاسي المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتني فى
هذا الفن والمقلد جيدي بحلى تقريره المستحسن (التاج - المطبعة الخيرية - مصر 1306 هـ ص 3)

حول الحالة الفكرية في تطوان وسليمان الحوات
الذي جمع في البدور الضاوية اجازات الدلائيين
ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون
ابن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى
سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد
ابن ادريس الفاسي :

بسليمان قد سلمنا وسرنا
فاللئى منزل له والملاء
كفه كفت الفساد وكفت
كل عاد فما لكم اكفاء

وبلغ صدى الفاخر السليمانية تونس الشقيقة
فتحركت شاعرية فحلها الهمام ابراهيم الرياحي
الذي نظم قصيدته الخريدة التي مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذي رد الخلافة لغة
وسما به للمسلمين منار

ومن شعر ابن ادريس يستنفر الشعب لحرب اسلى
مشيرا الى زحف العليبية من الشرق ضد الاسلام :

يا اهل مغربنا حق النفيير لكم
الى الجهاد فما في الحق من فلفظ

فالشرك من جنبات الشرق جاورك
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

فواج المكر تبدو من خوائمه
فمنده المكر والمكروه في نمط

من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفظ

وقد تمزق النشر بالمطبعة الحجرية التي اسست
بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات
المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات.
وقد اتصل جبل الادب على الطريقة التقليدية في
النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات
التصنيف في نطاق محدود على فراد القرون السالفة
مع اقبال في الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية
تجرد عالم التأليف من كل روح .

ومن الصعب التمييز استنادا الى منهجية التعبير
وحده بين مصنفات يتأرجح تاريخ انبثاقها بين
قرون ذلك ان اسلوب الادباء واللغويين ظل في
كلاسيكته المتحجرة في منأى عن الاهتزاز للكثير من
النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري
المتجدد واذا كانت اللغة كائنا حيا يتدرج في مراحل
النمو بين الطفولة والهرم ثم الانبعاث في طفرات
جديدة فان اللغة العربية بالمغرب الاقصى خاصة قد
احتفظت بطابع اصيل خلال خضم الاحداث
السياسية والحضارية واذا كان هنالك عامل منطقي
لتعليل هذا التحجر فهو ان الكثير من ادبائنا ولغويينا
ظلوا عالقين بابرار عاجية في حين ان لهجة التخاطب
كانت قد درجت في المجاري العيرة الفياضة
وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بتسرب
الدخيل الاجنبي وقد تجلت روح التجديد عند ادباء
او في مراسيم ومراسلات رسمية فظهرت بدلا من
مصطلحات معربة في قالب رصين الفاظ عامية على
حساب اللغة الاصيلة الفاظ عامية تكثر وتقل تبعا
للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق المعاجريات
وان كانت خطابات ووثائق سياسية اخرى احتفظت
باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة
والوضوح .

اما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ احمد
ابن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم
« الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » منذ عام
1329 هـ - 1911 م في الوقت الذي انبثقت الثورة
من اقصى الجنوب برعاية ما والعينين لتحرير المغرب
من الزحف الصليبي فاتحفنا بصور رائعة عن فنون
من الشعر الرقيق ابدعته قرائح الصحراويين المغاربة
في قلب الفيافي القاحلة مجددين بذلك عهد الجاهلية
الاولى في نضاعة الاسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى
وفخامة المبنى وكانت ضرور القول لا تتعدى الاطار
التقليدي من مفاخرة ومهاجاة ومدبج وغزل
وتشبيب وقد برز عشرات من الشعراء والناشريين
خلدوا اللغة في اصالتها وروعتها الاولى .

فمن شعر ابداء محمد بن محمود يصف مرافق
الصحراء :

حملنا الخيام وانفادها
وسرنا جيما تقسلا بطا
فجر العجاف رويدا لثلا
تخب فتبهر او تثلططا

ومن الأرجال العامية التي أصبحت تسيّر
مسرى الأمثال عند الجماهير قصائد « الملاحون »
للقيه الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام
1319 هـ) .

مدمن مـلـl

محدود الفلميال

انكل اسوال

اسر من حنش (7)

ومنها يدم قبيلة بأسلوب عربي لادع :

ما سم المتفجير

وبلا خيم اكبير (8)

اما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ ازيد
من مائة واربعين سنة ولكن بلغات اجنبية خاصة في
سنة وطنجة الى عام 1868 حيث برزت جريدة
اسبوية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والاسبانية)
تحل احداث العالم وماجريات المغرب ، وفي عام
1889 صدرت اول جريدة عربية اسمها « المغرب »
وتنافست المفوضيات الاجنبية فصارت كل واحدة
منها تصدر صحيفة باللغتين الاصيلة والعربية لمهاجمة
الحكومة المغربية تمهيدا للحماية .

ولم تكن تصل اليها آنذاك سوى جريدة
« الاهرام » المصرية التي كان المغاربة يتهافتون على
قراءة الاعداد القليلة الواردة منها ثم تواتت الصحف
العربية في اوائل القرن العشرين فظهرت « الفجر »
و « لسان المغرب » و « السعادة » . وانصرف الفكر
المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة فلم
تظهر اول دورية وطنية الا عام 1932 وهي مجلة
« مغرب » التي ما لبثت ان تمزقت بصحف اخرى مثل
مجلتى (السلام) و(المغرب الجديد) و(جريد الحياة) تعضدها في
المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة واعية

شكلت الاطر الوطنية الاولى للخلايا التي انبثت في
البلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بثلهف ما يتسرب خفية
الى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتأليف والنشر
من الصحف والمجلات (9) وبدأت روح جديدة تنفتق
في اسلوب حماسي رائع يستمد اواره من النهضة
القومية بالجنح الشرقي للعروبة وخاصة بمصر
والشام فظهر شعراء لمع نجمهم وبدأ الشعر يعنى
بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي
ويتخلص تدريجيا من وطأة المفاهيم الكلاسيكية حول
الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحا لمعطيات
طريفة اكثر صلة بمتحدثات العصر ومتطلبات
التطور ومع ذلك فان هذه الفترة لم تكن خالية من
تخضم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جبل ما
قبل الحماية وجبل التوثب الجديد الذي اشاد به
الاستاذ علال الفاسي في مخطوط حياة « وادي
الجواهر » فمنهم محمد فريط صاحب « فواصل
الجمان » حيث ترجم لزيد من ثلاثين من « وزراء
وكتاب الزمان » كان ينظر الى قيمتهم الادبية بمقياس
جديد فقد تحدث عن اديب « استكتب في وزارة
الخارجية الى ان شالت نعمته ووسدت في التراب
هامته في عام نيف ومئسة وثلاثمائة والف » ثم حاول
تعريف قطاع وزاري جديد في اسلوب قانوني ينم عن
اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي
حيث قال : « وزارة الخارجية عبارة عن الاستقلال
بمباشرة دعاوي اهل الحماية وتنفيذ ما تملق بها من
عزل او ولاية والوساطة بين السلطان وبين سفراء
الدول وكبرائها وكتابة الرسائل للوكها ووزرائها » .
ومن نظمه الرائع نشيد مدرسي نحا فيه منحى
طريفا بين التوشيح والتخميس في « مان جديدة » .

قال :

يا بني الدهر اجيبوا

داهي التصح النبير

(7) مد اي ماذا وعلال من العل يعني الذي يحلب نوق الناس بعد ان تذهب للري من عند اهلها وهو
عندهم وصف في غاية الدم ومعدود اقلعيل اي معدود في العيال اي عالة على الناس والانوال
بيوت من الشعر واسر من حنش اي اكثر من الحنش سري .

(8) فم اي اصله ثم وهي لغة والتفجير التخلق كالتعمدد اي التشبه بمعد بن عدنان) باخلاق بني
مفجر ومفجر قبيلة بناحية فاس والخيم هو حسن السجية وهو الخلق كما عند ابن
سيده في الحكم (فارسي مغرب) ومعنى البيت ان هؤلاء القوم مجردون من كل الاخلاق
المغفرية ومن السجايا الحسنة .

(9) واهمها مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضى التي كانت قليلة حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب
الى التوجه للجزائر للاطلاع عليها .

هذي البواخر لي همق البحار وفي
 اعلاه تفعل فعل الفارس البطل
 هذا التمدن هذا الفضل فامن به
 ليس التمدن بالالمان وانفزل
 ومن بين من برز من الشعراء في هذه الفترة :
 محمد السليماني الذي تمخضت رحلته الى
 الشرق العربي الناهض من ثورة في احساسه
 ومنهجيته ومن نفاثاته التي يواكب فيها شاعر
 الكنانة حافظ ابراهيم قوله :

ولست الى النسيب اهش كلا
 لسان وراه لمح السراب
 ولا وصف الجالس يردهيني
 ولا جس العشاني والريباب
 اليك امي فقدت حجابها
 وهذا عزها وشك الذهب
 وهذا صبحها يحكي مساء
 هزالتها توارت بالحجاب

وقد وصف في دقة وروعة جانباً من الآسي
 الاجتماعية والاقتصادية التي توالى على المغرب
 المحتل مشيراً الى تكة العريضة وتقلص ظلها
 وسياسة التفتير والتجهيل التي نهجها الاستعمار :

رضينا الي حتى لا نصيح
 اذا ما قال سررك في الجواب
 ولا احد من اهل العلم منا
 يقيم لسانه عند الخطاب
 مصانعا الم بها فساد
 فاصبحت الصنائع في اضطراب
 وساد على تجارتنا كساد
 فراس المال منخرم الحساب
 وزاحم في فلاحنا اتاس
 جنوا من ريمها عجب العجاب
 ونحن ازاهم فقراء نلقي
 بانفسنا باحضان المرابي (10)

واستجدوا ذكر قطر
 كان ذا صيت شهير
 جددوا للضرب مجدا
 واركبوا كدا وجدا
 واقدحوا للعلم زندا
 والبسوا للحرز بردا
 وابتضوا هديا ورشدا
 تسموا شكرا وحدا
 وتروا رميا جميلا
 من ذوي القدر الخطير

ومنهم احمد البلغيشي الذي يعتبر انموذجا
 للعالم المبرز وللغقيه الضليح والمثني البارح الذي
 يحقق قضايا القانون في مصطلح دقيق يستجلي بواطن
 المعضل الى جانب شاعرية فياضة جمعت بين الصفاء
 والجزالة . ومن نظمه :

بدت لي ترونو بالعيون الفوائر
 ولكن لها في القلب وقع البوائر
 بدت لي وفي قلبي المني بعبها
 لوامج اشواق كحمر الهواجر

اما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي
 حفيظ بطنجة وسيره بباريس فهو خطيب واعظ
 وناقد قانوني ، ومن شعره :

ليس التمدن ما يلهيك من عمل
 برقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا
 ليس التمدن في عيب الدين مخرأ
 بل التمدن في اجلال من فبرا
 وقال في تصيدة اخرى يصف بعض ما ظهر
 آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر
 وغواصات :

هذي المناطد فوق الجو تنشدا
 هذي الآئر والآئر في الدول
 هذي المراكب تطوي الارض تحفنا
 قرب المرار ويمن السير والنقل
 هذا القطار يخد الارض منتظيا
 متن البسيطة في سهل وفي جبل

(10) راجع «الادب العربي في المغرب الاقصى» لصديقنا الاستاذ محمد بن العباس القباچ

وقد كانت الدعوة الى التجديد في نطاق الروح
الاسلامية هي شعار مصر يتردد في كل قصيد
فمن ذلك ما قاله السليمانى :

فكل زمان له حلة

فالق دلاءك بين الكرام

ومجد الله الفاسى :

والبس لكل زمان حل حله

فالشهم من يعرف الإدوار والمصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر
حضارية مستحدثة كمنظر الشاهر محمد يوعشرين
بين الكهرباء والماء حيث يقول :

قد سبج الماء في انبويه سحرا

فقطب الضوء كالزور من غضب

الكهرباء اراها قوة جبلت

على الحرائق والاسراف والمطب

ضوء الزيت وضوء الشمع قد محيا

من آية الليل اذ اشرفت من حجبي

الى ان شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخمت
ادوارها في اسلوب جذاب واستعمل فيها تماييز
طريفة حيث قال :

تلك الرواية من تعبير نادرة

تشخيص ادوارها من ابداع الخطب

وقد ردد المغرب في تليف وحنان اصداه
الشرق المتناهي الذي حالت دونه حجب وهوائق
مترسما خطاه في كل شاد وفاذ فقد عبر محمد
ابن اليمنى الناصري عن حرقة الابداء في فجيئتهم
بالمفلوطي حيث قال مشيرا الى فن الفقيده والسوان
بديمه :

ما للمعارف ترسل «النظرات»

نحو الثرى وتسلسل «المبرات»

فالمغرب الاقصى يمزي مصر في

ذاك الابسى مذلل العقبات

يا مصطفى وليت هنا لابسا

حلل الشفاء موثق الخطوات

قد كنت لينا مرشدا ومهدبا
ومشدا بالخير خير نبات

* * *

وظفر المغرب طفرته الرائعة برعاية الاستاذ علال
الفاسى ورفاقه الاحرار عام 1933 عند مطالبة الشعب
بتخليد الذكرى السنوية للعرش المغربي كمنسوان
للوطنية الصادقة التي اظهرها جلاله المرحوم محمد
الخامس وقدمت الكتلة الوطنية في العالم التالي
برنامجا مركزا للاصلاح برهن بالاضافة الى روحه
التحررية من الخطوة الحريثة التي قطعتها الفئة
العربية في فترة وجيزة اصبحت خلالها قالبا حيا
لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة ردها الشعب في
شعاراته مثل الغاء الحكم المباشر وفصل السلطة
وتشكيل مجالس وطنية منتخبة وقرار الحريات
العامة وحق الاضراب وتوحيد التعليم وضمان الملك
العائلي وتوسيع القرض الفلاحي ومحاربة سياسة
الادماج وتكوين الاحزاب وفتح المجال للبعثات العلمية
الى الشرق العربي وحماية الصناعة الوطنية وضمان
السكن الصالح للجميع وتمززت هذه المطالب بحركة
« تضامن » بين تونس والجزائر والمغرب وانعقدت
«مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وادارة الحماية
وصدرت صحف عربية جديدة ك « الاطلس » . فقطع
المغرب بفضل هذه الانتفاضات خلال نصف قرن ما لم
يقطعه في آحاد عريضة حيث تقاربت الاحاسيس
وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية واتحدت
مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها
وتجانست مفرداتها في الصحالة والاذاعة في عواصم
الشرق والمغرب العربيين وانبثقت الى جانب هذه
الثورة الفكرية نهضة علمية انمكنت صورها على
مجلات ودوريات مثل « رسالة المغرب » التي اصبح
عنوانها رمزا لمدرسة القاهرة الناهضة في شخص
« رسالة الحسن الزيات » ورفاقه من الاخصائيين
العرب الذين بذروا في روينا الايمان بقضية العربية
كلفة للعلم والحضارة في مصر الحديث فكان
للمفاهيم الجديدة وتماييزها الطريفة صدى عميق
في نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين
مزدوجي الثقافة وموحدتها . ولاعطاء صورة عن
« رسالة المغرب » التي تبلور فيها الانتاج الفكري
الرصين في المغرب قبل منتصف القرن الحالي
ناخذ العدد الاول (11) من السلسلة الاسبوعية

(11) ونلاحظ ايضا في هذا العدد فراها ابيض هو عبارة من جزء مقال قصته رقابة الحماية لانطوائه
على منصر لم يرقها وكثيرا ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء :

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الاستاذ محمد
الحلوي :

اي دنيا انت يا دنيا الرؤى
يا ملاذ الروح يا نبع النبي ؟
سبحة من سبحات الروح في
أفقك السحري عمر ذهبي

ونسيم مطر منسكب
منك في قلب وجيع متمسب

نمة تخلق من الامه
مبتريا مبدعا للعجب

في مجاليك استقيت الفن من
نبعه الفياض صافي المشرب

وتلقى قلبي اللحن الذي
يتلقى مثله كل نبي

سال في روعي شعاما حالما
غاب في قلبي وروى ادبي

ومن شعر الاستاذ عبد المجيد بن جلون خريج
« جامعة القاهرة » :

يا نديمي اسق نديمك
زده نعمي وحبورا

زده صفوا وسرورا
وخبيلا وشمورا

يا نديمي اسق نديمك
فملا الاكوان خمرا

يتدلح منها الشمور
ثم قل كون كبير

او فقل كون صغير
اوليس الكون سرا ؟

الليالي والمصور
في محيط تتقلب

انها حتماء تصطب
والزمان الفظ يلهب

ظهرها وهي تدور
ومن شعر الاستاذ عبد الله ابراهيم رئيس

الحكومة سابقا :
سر كرمش الكهربا
الشته السنة القضاء

الجديدة (عام 1368-1949) حيث نستشف من عناوين
الابحاث والدراسات الوجيهة الجديدة في الادب
والثقافة في المغرب الناهض فهناك دراسات حول
الانثية ومجزرة الاسلام المعاصرة
وزهراء مجدولين او تنارح العوازل
والمبقرية شذوذ والتثقيب الذاتي ورتاء شاعر مصر
علي الجارم وقصيدة للشاعر المرحوم عبد الكريم بن
ثابت الذي قضى شطرا من حياته في مصر
« وجهك الباسم » وهي من بواكير الشعر المنشور
جاء ليها :

وجهك الباسم لي نعمى وروح وهناك
ورجاء لغواذي كلما عز الرجاء

وشفاء لجراحاتي وسلوى وعزاء
ونعيم ذكرتي نفحة منه الخلود

حين كنا نجعل الدنيا والام الوجود
تملا الفرحة روحينا وبدي وتمسك

وكلانا يا حبيبي مثل انفاس الصباح
مثل همس البحر النائم في غود القمر

يتفنى بالاندية

ونقرا في الفهرس العام لسنة 1950 فيفساه
من الدراسات يمطي مجرد عنوانها لمحة عن اتجاه
المصطلح العربي في المغرب منها : الشعور والانفعال
- عصامية الادب - صلاتنا الثقافية مع مصر - الفكر
الاجتماعي والفكر النقابي ورسالة الشعر واردة
الشعوب وكياننا الروحي ودفاع عن اللغة العربية
والنزف الثقافي والعلم والشاعرية وثقافة هذا
الجيل ومركب الكمال وشرقية الحضارة المغربية
الخ ..

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر
المغربي الحديث ، وللاستاذ الكبير ملال الفاسي :

مضى الشطر من عمري وانسي دالما
حليف هوى مقر وخذن اذى مصدي

واطمح للروحي كبسهم جرحها
فتأبى سوى صدي وتأبى سوى ردي

واطلب عقلي منجدا في كفاحها
ولكنها تظني على العقل في الحد

تجادبني امواها وتمد لي
ظلالا من الالوان لامعة المد

نبراته وقراقية
مثل الزلال بلا وتر
وجداول فوارة
يلفون بصفتها الزهر
والورد بلبل خده
فطرات ابداء الحر
في مثل حبات الجليد البيض
او سقطت الصدر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربي في مختلف
المصور وخاصة في الحقبة الحديثة تعطينا صورة من
تطور الفكر في اوانه الطريفة وانكاساته التي تشرق
وتخفت على التعبير اللغوي الذي واكب رغم تناسي
الديار تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى .

المؤثرات الدينية

كان تعليم القراءان والفقهاء هو الانطلاقة الاولى
لتعريب الجهاز الديني في المغرب الاقصى حيث اناط
طارق بن زياد بسبعة وعشرين من العرب رسالة
تلقين مبادئ الشريعة الاسلامية الى الجيش البربري
ثم عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية وما
لبثت الدعوة ان تقلصت بسبب الاضطرابات
السياسية بين الامويين والعباسيين فظهرت في
الميدان فرق الخوارج التي نقلت اراءها التحريرية
بعزلة بالقراءان والحديث ولعل انتشار الفكر القراءاني
في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلة
البرهغاطية الى وضع قرءان بالبربرية في ثمانين
سورة اطلق عليها اسماء للانبياء كآدم ونوح او
حيوانات كالجمال والديك والحجل والجراد او
الفاظ اخرى مقتبسة من القراءان كهاروت وماروت
وابليس والحشر وقد توثقت الصلة بين المغرب
والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالم
سلكو ابن واسول والد امير سجلماسة المدراري الى
المدينة لاخذ العلم وربما العقيدة الخارجية من
عكرمة (1) مولى ابن عباس تمزنت دولة الضغرية
الخارجية في الصحراء المغربية الى منتصف القرن
الرابع حيث استعالت في عهد الناصر لدين الله الى
امارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في
مجموع اصقاع المغرب اذا استثنينا فلولا معدودة من
الفرق ظلت تنافس الخوارج كالثبينة الموسويين

فانا هنا نسوي اندفاع
ليس يحكمها ذكاء
نسل النجوم لو النجوم
تجيب في لغة الضياء
وسل الصخور الجائحات
بدون ياس او رجاء
وسل الصباب الضخم يزحف في انخفاض واعتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بين عنف والتواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف الضماني القضاء ؟
امصير اتماب الشعوب وما ينته الى القضاء ؟
ومن شعر ادريس حسن العلمي من قصيدة
طويلة بعنوان « الصفاء » :

لدى منبع النور مهد السناء
زها الفجر روتقه والسماء
وفي صفحة النهر نائمة
يلمس النسيم ورقص الضياء
وبين الخمائيل اطيارها
تطربها بلديد الفناء
وعند المروج وعطر الزهور
وعند الهضاب وسحر المساء
نشدت لروحي الرضى والصفاء
ومن شعري النادر في صباي :

النور بدد ما اعتكر
لما بدا ضوء القمر
والارض في جنباتها
مرف الريح قد انتشر
واتساح في الروض المنعم
خده موج البشر
متناكرا متزاوجا
مستمرنا حلو السمير
فالجر يفتاه السناء
ببرقة تجلو النظر
والقلب يخفق نشوة
فيشع بالزهو البصر
والنفس تبسح فيضها
فتزاحمت فيها الفكر
والطير يشدو زاهيا
من فوق افنان الشجر

(1) ذكر ابن خلكان ان عكرمة كان بربريا يرى واي للخوارج .

مالك فان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز الى
الاندلس والجزر المتوسطة كصقلية وقرطبة حيث
امتدت من مصر الى تونس والسودان والمغرب
الاقصى (9) واذا كان هذا المذهب قد تمزج بالاندلس
بفضل يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مكيئا عند
الامويين وفي الفريجية بفضل سحنون صاحب
المدونة (10) فانه تركر عندنا لاسباب شتى منها ان
الادارة ساندوه لمساندة مالك بيعة الطويين
وتقديم البربر لمدينة الرسول عليه السلام ولعادتها
التي اعتبر مالك العمل بها دعامة للمذهب مع اقرار
المصالح المرسله وتحكيم الاعراف التي لا تصطدم مع
روح الشريعة واهى المولى ادريس الا ان يسند القضاء
لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي (11)
وقد نشأت جامعة القرويين عام 245 هـ في
احضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم
الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر
معهدا ومعهدا ياوي اليها الغريب ويجتمع في حلقاتها
طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث ان اصبح في
القرن الرابع مهيبطا لرواد الفكر يتقاطرون على
عاصمة استوطنها قرطبيون وقبرانيون من رجال

بافعات والروافض بالاطلس الكبير (2) والبلجيين (3)
يسوس وقد استاصل المرابطون في صراعهم ضد
البرفوطيين شافة هذه الطوائف التي اسهمت نحو
من ثلاثة قرون في نشر العربية ضمن دعاويها
المقائدية .

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد
عرفت مذهب الاوزامي ومذهب ابي حنيفة قبل ان
يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان الاوزامي
امام اهل زمانه - كما يقول مالك - انتشر مذهبه في
الشام نحو مائتي سنة (4) وكذلك في الاندلس
قبل الامويين (5) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته
بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى
الاندلس وفاس حيث لم يحتد الصراع بين المذاهب
لانصراف المغاربة الى المذهب المالكي على ان الاسام
ابا جيدة الفاسي قد حمل معه من الشرق وثائق
شافعية (6) بالاضافة الى تضلعه في التفارح المالكية
بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم مما اشيع
من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المغرب (7)
وكذلك للمذهب الظاهري الذي تزعمه ابن حزم
بالاندلس في القرن الخامس (8) . اما مذهب الامام

- (2) حسب ابن حوقل وهم اتباع موسى الكاظم الذي اخذ له والده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة
ابنه اسماعيل (الامام السابع للاسماعيلية) وقد رفضت البيعة لموسى لعرفت بالرافضة التي
وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .
- (3) اتباع علي بن عبد الله البجلي بماسة وتارودانت .
- (4) خطط الشام لمحمد كرد علي .
- (5) مدارك القاضي مياض (ج 1 ص 66) الى ان رحل الى مالك فرعوس وشبطنون زياد بن عبد
الرحمن الذي ادخل الموطن الى الاندلس وغيرهما فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب
مالك حوالي 170 هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المثنين صمصمة بن سلام تلميذ الاوزامي
وامام مذهبه قد ادخل كتب الحديث الى الاندلس (جدوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 227)
وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 20 ص 321) ان بعض المذاهب
كمذهب الاوزامي لم تكن تقل عن غيرها شأننا غير ان الملوك لم يعضدوها ولم يهتم بها الخاصة
والعامة وللأوزامي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمس وثلاثين مسألة حربية اي من القانون
الدولي العام وانتصر الشافعي في كتابه الام (ج 7 لاكثرها) .
- (6) توفى ابو جيدة حوالي 360 هـ (سلوة الانفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 93 طبعة فاس
الحجرية)
- (7) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج 1 ص 192) وفي شعراء بفسداد للخاقاني (ج 1 ص 386)
ومجلة اللسان العربي (عدد 3 عام 1965) .
- (8) لاحظ احمد امين (ظهور الاسلام ج 2 ص 7) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة
مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب .
- (9) الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص 17) .
- (10) (جدوة المقتبس ص 360) .
- (11) الجدوة ص 13

تجربتها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون (14) وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره وهديب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستفيضاً عنها بأحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من احاديث الطهارة فصار المنصور يملها بنفسه كما يفعل السلطان الملوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15)، وقد انتشرت هذه المصنفات وحفظتها الناس من العوام والخواص (16) فكان فيها تراء للغة واندرجت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية ماتت الكلمات ذات الاصل القرواني والحديث الفقهي . ومعلوم ان الاشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر ايضاً قيمة العقل فلذلك هدف الى ابراز « موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح (17) ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدة خلوا من دخيل سياسي كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة المهدوية احاديث وآثار واخبار اوصلها ابن ابي نعيم الى الاربين واضاف اليها السيوطي المصري ما نماها وحفظها فراجت في المغرب واثارت موجة من الادعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في منكرها ومع ذلك ظهر متبثون كابن هود الماسي وحاميم الفماري وابن ابي محلي ووجد الكهان مجالاً واسماً لمخاريق اسندوها الى حسابات الجفرية وهي جداول منسوبة الى جعفر الصادق امام الشيعة مخشوة بالتنبؤات من ماجريات المستقبل بارقام ومربعات اصيحت لفة للكتاب

الفرقة والسنة وكان جامع الازهر (12) يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لافريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادية الجنوب اول مدرسة عرفها المغرب كدار للرابطين يلحق فيها القراءان ومبديي العلم اسمها وجاج بن زلو اللطفي تلميذ ابي عمران الفاسي الذي كان انتهى به المطاف في تجواله لانتجاع العلم والمعرفة الى حاضرة افريقية حيث برز امثال اسيد بن الفرات وسحنون وابن ابي زيد القيرواني والقاسبي من رجالات الفقه والاصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القروانية السبع الى ان اختار المغرب كالقيروان قراءة نافع منذ صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القراءان في الكتابيب التي كانت مجرد جناح في المسجد (ولذلك تسمى السيد وهي تحريف مسجد) وكانت للعوامل السياسية يد قوية في الاختيارات العقائدية اذ ما كادت مثلاً مخطوطات « احياء علوم الدين » للغزالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من الرابطين يدهون الى تحريفها لما شاع آنذاك من اتعال لرجلين (13) وكان لتسرب المفاهيم والتماييز الفلسفية الغزالية اثرها في اوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت ان حملهم على عقيدة الاشعري السلفية من تاويل متشابه القراءان والحديث استناداً الى ضروب المجازات مما يتلام وروح الشرع وبعضه العقل والطبع وحظر المنصور الموحد التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للاصليين على طريقة الاجتهاد المطلق واحرق كتب المذهب المالكي بعد

- (12) بني جامع الازهر جوهر الصقلي عام 359 او 360 هـ في حين تأسس جامع الزيتونة سنة 141 هـ (758 م) صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ بيرم ج 1 ص 122
- (13) اكد ملافة ابن تومرت والغزالي ابن الخطيب في الحلل واليوسي في المحاضرات والركشي في تاريخ الدولتين والزبيدي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الاثير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء .
- (14) اول من ادخلها الى فاس دراس بن اسماعيل المتوفى عام 362 هـ
- (15) الا ان هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت من تدريس الاصول اذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاد لابن ريدان ج 3 ص 213).
- (16) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا عام 1357 - 1938 ص 177)
- (17) هذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد تار ابو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والمواسم) ضد ما اصاب العلماء في عهد الرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت واندك من تلقين القراءان الى الادب ثم الموا فالمدونة فونائق ابن المطار فاحكام ابن سهل .

الذي عرف في مصر بأبي الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشي (21) تلميذ امام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلالي وقد درس الحديث والفقه بفسداد ومحمد بن الخضار السبتي الذي سمع من ابن اصلاح كتابه في علوم الحديث (22) وعلي الحرالي الذي كان ابتدع في التدريس منهاجا « ينزل في التفسير منزلة اصول الفقه في الاحكام » ملاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والالهيات (23) ومحمد بن عمران الشريف الكرزي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية (24) ويونس بن طريفة القصري الذي ولي التدريس بدار الحديث الكاملة بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الاقصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فصحي هذا الشق الثاني من جناحي العروبة كأبلغ ما تكون العربية في اصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بان الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبني ومعنى على ان نزعة الاصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة - كما سنرى بحول الله - بل شملت حتى علوم الآلة كنظرية ابن مضاء قاضي (25) قرطبة ايام الموحدين انكار العامل في النحو، وقد اصيحت فاس (26) آنذاك بجامعة حاضرة المغرب العلمية وملتقى علمي (27)

المشعوذين وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقا لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تمايرها حروف سريانية وعبرية وتداخلت هذه المعطيات مع اسرار التنجيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك اثره في تعقيد التأويلات القردانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببرامته بعض مناصرها مشيرا الى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتأسيس رابطة للعباد جمع فيها طلبة القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابه « المرشدة » باللسان البربري ولقب انصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لتعاليم باسم الدين ومهما يكن فان سوق القردان والحديث نفق فظهر اول تفسير للقردان لابن عطية اقتبس من كشاف الزمخشري مجردا من عناصر الاعتزال كما تلمذ للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي اقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ - كما يقول ياقوت - اربعة وثلاثين ألف بيت من شعر الجاهلية (18) ومحمد الجبائي (19) البغدادي الذي روى عن الطبري وجلب من تأليفه احكام القردان واصول الفقه والرد على ابن حنبل وميمون بن ياسين الذي قرا على الطبري صحيح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر نامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي (20)

118 مجمع البلدان ج 6 ص 62 (19) توفي عام 546 هـ (سلوة الانفاس ج 3 ص 267)

120 توفي عام 622 كما في الدليل والتكملة .

21 الاعلام للمراكشي ج 4 ص 883، 22 توفي بدمشق عام 634 هـ (درة الحجال ص 282) .

23 حتى كان يقض النجاة لابن سينا انيل الابتهاج بابا السوداني ص 187 . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص 286)

25 احمد امين ا ظهور الاسلام ص 118) حيث لاحظ نقلا عن ابن جنى « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشي غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملا في زيد او عمرو .. »

26 المعجب للمراكشي ص 221 .

27 وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينسار الذي زار المغرب عام 948 هـ (1540 م) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وهؤلاء الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين وعلله يعني الكتابيب القردانية .

التوفيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب
وسائر العلوم العقلية ..

وقد تابع مات العلماء رحلتهم الى الشرق نذكر
منهم كمنادج لنوع التبادل بين الجناحين :

تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي (701 -
752 هـ) الذي اعاد بقية الشافعي بالقاهرة وولي
تدريس المسروبة ودار الحديث الاشرافية حيث
خلفه تقي الدين السبكي (31) وابن المواق احمد
التجيبى الذي استنظر الموطن بمصر فحرب شيوخ
المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة الفاسي شيخ
مرضى الزبيدي (33) .

وابن زكري الفاسي الذي عقد علماء الازهر
مجلسا لمناظرته فى القضايا الفقهية كشرط
الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب
المنطقي الذي تولى التدريس فى المنصورية والخانقا،
الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي
سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث
ولي مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابي البركات الكناسي شيخ المحدث
الحافظ ابن حجر المستقلاني (37) ومحمد تقي الدين
الفاسي الذي وافق ابن حجر فى السماع بمصر
والشام واليمن (38) .

وابن الخطري المراكشي المصري الذي ذكر المقرئ
انه كان يحفظ المدة والاسماء لابن دقيق العيا

القيروان وفرطبة وتركزت فى القرويين بالاضافة
الى علوم التفسير والحديث والاصول والفقه والعلوم
التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبدع والمنطق
والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة
والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات
(وهى الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ
وتزييدات افواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف
الانطار الانثيقية والغربية مثل جيربير Gerbert
الذى عين بعد ذلك على راس الكنيسة باسم البابا
سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م وادخل
الارقام العربية الى اوربا . وقد هزرت دولة بني
مرين هى الاخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة
تحت شعار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة
الصوفية وتشجيع الزوايا والاضرحة التى تفق
فيها - كما سنرى - سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها
ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها
ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الانكار فى هذا الخضم من البدع
التي هزت السنة فى مقر دارها فان العلم بالمغرب
ظل محاطا بسياج من القداسة بالرغم من فقدان
الملكة والتحقيق العلمي - كما يقول ابن خلدون
(29) وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي
زار الشرق فوازن بين فاس وبين حواضره فى الشام
والحجاز ومصر من حيث الاصاله العلمية فقال :
« ما رايت مثلها (أي فاس) ومثل علمائها فى حفظ
ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وفزارة الحفظ
لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة
من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل
علم مثل النحو (30) والفرائض والحساب وعلم

(28) مفضل المدري صاحب الشرطة والحسبة بفاس اول من سن سنة بناء المدارس (جذوة
الاقتباس لابن القاضي ص 220) وقام ضد بنائها محمد الابلى العبدري شيخ ابن خلدون
ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس وايده بابا السوداني (نيل الابتهاج ص 246) وقد
بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هى عبارة عن احياء جامعية اى مساكن للطلبة تحتوي على غرف
(29) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 97) .

(30) كان موسى بن زيري الهسكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب (درة الحجال
- طبعة الرباط 1934 ص 314) . (31) المدارس فى تاريخ المدارس للتعميمي ج 1 ص 458) . (32) توفى
عام 725 هـ (السلوة ج 3 ص 244) . (33) راجع مادة سود فى شرح القاموس للزبيدي .

(34) السورة ج 1 ص 83 . (35) توفى 774 هـ (درة الحجال ص 490) . (36) مات عام 823 هـ (الاعلام
للزركلي ج 4 ص 50 وذيول طبقات الحفاظ . (37) الاصابة ج 4 حرف م . (38) نيل الابتهاج ص 318)

ولم يحظ المغرب الأقصى في مختلف العصور بزوار من علماء المغرب اذا استثنينا الوالدين في عهد المنصور السعدي (أي أوائل القرن الحادي عشر الهجري) من الحجاز وللسطين ومصر والشام والعراق والهند وقد سبق لصالح الدين الأيوبي أن يمث وفدًا إلى المنصور الموحد في عام 585 هـ يطلب منه إمداده بأسطول لمحاضرة مكا ومصر وطرابلس الشام وأولف إليه أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من إنشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها :

سأشكر بحرا إذا غاب قطمته

إلى بحر جود ما لاخراه ساحل

وكل من الرسالة والتصيدة لا تختلفان في معانها ومبناها من اللون المادي التحجر الذي وسم الأدب العربي في هذا العصر شرقًا وغربًا والذي جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستسمح حضرات الأخوة إذا أنا أزمجتهم بلائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائها إعطاء صورة عن اتجاه علماء المغرب الجديد في إعطاء الأسبقية للعلوم الإسلامية لاسيما منها التفسير والحديث والفقهاء مما أضفى على دراساتهم - رغم كلاسيتها وتاريخها الاستطردادية المملة - طابعًا خاصًا جعل منها مرجعًا هامًا في تاريخ التشريع الإسلامي وتاريخ تطور اللغة وإذا كان الرحالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب الحواجز الاستعمارية التي أقيمت في طريق الحجيج بالجزائر منذ عام 1830 م فإن المغرب ظل مع ذلك يتتبع بثلهف جميع حركات التجديد المنبثقة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر وأرباب الأوقاف المرصودة لإمانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبد

والشاطيبين والطوالح في أصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة وغالب الفيسة ابن مالك والتلخيص وقد طارح الإديباء وقروض الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولى تدريس الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانستقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والإمامة بالكاملية والمنصورية (39) .

وعبد الرحمن سقين الذي أخذ الحديث من القلقشندي وزكرياء الأنصاري والسخاوي مصر ومن ابن فهد بمكة (40) .

وإدريس العراقي الفاسي الذي كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيث استدرج أحاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسة آلاف وكان أحفظ من ابن حجر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي الذي وصفه صاحب خلاصة الأثر بأنه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة بالطبيعي والالهي والرياضي والارتماطقي والمساحة والرمل والحروف والسيمياء (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية رائعة (43) .

ومدرسة الشيوخونية كانت أكبر مدرسة بمصر نظم إليها علماء مغاربة برزوا في شتى العلوم الفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكريم فاسي - كما يقول تيمور - (45) نهضة متواضعة - صناعة الخرف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى الحائطيات بالمغرب) تنطوية جدران العمارات وتوجد الآن نماذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

(39) توفي عام 872 هـ (الإعلام ج 4 ص 125) . (40) السادة ج 2 ص 160 .

(41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 (الإعلام للزركلي ج 4 ص 334) .

(43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .

(44) نيل الإبتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصر في آخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي .

(الوثائق المغربية ج 11 ص 1907) .

(45) في كتابه حول التصوير عند العرب .

(46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتى على مكاتب القاهرة والاسكندرية وجلب كتبًا من الشرق ورتب لاهل الحجاز واليمن مائة ألف مثقال ذهبي كل عام (الإنعاف لابن زيدان ج 3 ص 251) والمثقال الذهبي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787 م وكانت قيمته أقل من الدينار .

دائبة ما فتىء يبذلها رسل الفكر طوال الف عام من الاستقلال الا ان المغرب الاقصى رهبا انفرد بسون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والتون الفقيه والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية .
 (في شنيق وسوس) مما فسح المجال لسات المفردات العربية الخالصة التي طمعت لغة الخاصة والعامية وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا وبحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما اكثرها بالمغرب حيث بنفت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة) اثر قوي في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى اصبحت الاي القراءاتية والاحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وامسى القراءان معجم المساكين - كما يقول المثل العامي - يصحون منه اللغة واذا تعرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المعجم الصوفي من القراءان » فان حرف الالف منه يبلغ المائة منها كلمات الاخلاص وارذل العسر والاستدراج والاستفانة والاستفاد والاستقامة والاسراب والاصنام والاطلاق على الغيب والاعتصام والاقتصاد واقتصرار الجلد والالواح والامانة والامثال والانابة وانباء الغيب والانداز والانصاب والانفاق والاوزان والاوزان والاوليا والاحاد والائمة والايمان .

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » (اي ما د طبقا لما قدر في الازل) و« قاتلهم الله » و« خذو فاقتلوه » (وهي كتابة عن فعل الشيء باستعجال وبالله وتعال بمعنى تعال واثت) وقيل باسم الله او توكل على الله (اي اشرع في العمل) والصلوا على النبي (اشارة الى النهاية او الكفاية خبرا ا انشاء) ولا الضالين (كتابة عن الموافقة بدلا من نعم وبالتي هي احسن (اي بالمول) الى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت الى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوي الشريف قوله حج فلان (اي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنائز (اي يس من خيره وشره واعتبره كأنه مات) وكفر عليه (اي افتناظ منه) وفلان حال واحوال (اي كثير النكير) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفيين وهما « المظاهر » بمعنى المرائض (وتسمى عندنا ايضا الميضات طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « اتخذوا على ابواب مساجدكم المظاهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كلها .

الله عصر الموحدين بالدعوة الى السلفية ودراسة الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك امثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما اصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السنسي وعدم التفاني في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبيد الله بن سعود قد وصل وانذاك الى تونس وفاس يحل اسس الدعوة الوهابية . اي المذهب السلمي كما يراه محمد بن عبد الوهاب (فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب الى الحجاز نجله الامير ابراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما عن روح اسلامية رياضية اهلت الشمال الافريقي لاحتضان التراث الاندلسي ولربط امجاد الماضي والحاضر والسهل على معطيات الفكر الاسلامي في سلفيته الحق ولطبع الاجيال المتوالية بميم المثالية في نطاق الوحدة الاسلامية وكانت هذه الروح تدكس حتى المرأة في خدرها بالرغم من الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الامية بين النساء واذا كانت المرأة هي المدرسة الاولى للحياة والنواة الجوهرية للدم الوهي الديني داخل الاسرة فان حصانة المرأة المغربية قد جعلت منها - بالرغم من ثقافتها المحدودة - مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على ان تلة من النساء قد نبضن - على قلتهم - في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الاسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة ام قاسم الاسفية وام هانيء المبدوسية، وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتابيب القراءاتية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد « الاصلية » التي انطلق منها الاشعاع الديني بلغة القراءان وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبثقا للاحرار الذين اجبوا نار الثورة ووثقوا الصلة مع زعماء الاسلام في الشرق امثال الالفاني وعده ورشيد رضى - بعد ما اوهنتها دسائس الاستعمار .

وهكذا نستجلى من هذا الاستعراض لتطور الفكر الاسلامي في المغرب الاقصى صورة لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود

وما أنتهت للجوف فهي الجائفة
وقوله :

والرقيق داه الفرج في النساء
كالتقرون والعفل والافضساء
والبضع بالبضع هو الشفار
وهقده ليس له فرار
وسمي الفاسن بالجميل
كذلك بالزميم والكفيل
والجنس بالجنس هو المراطة
بالوزن أو بالمد فالعبدلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من هذا الإيجاز الفاضل التي حررت الملازم « العديدة » لحل الغازه كمختصر الشيخ خليل المصري الذي ادخله الى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد ابن الفتوح أمكناسي (49) والذي حفظه الطلبة وحتى العامة عن ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الإسلامية قد أسهمت بحظ وان في تطوير لغة الضاد بهذا الجناح الغربي للعروبة . غير أن التعليم الإسلامي ما لبث أن تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والإرشاد في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية عن طريق اللغة العربية وبدأت الإذاعة والتلفزة والصحافة تقدم يومياً للشعب حصيلة لا بأس بها من مصطلحات العصر تعزز أحياناً بفتاوى دينية تصل بين ماضي هذا البلد المسلم المحافظ وحاضره المتأرجح بين مختلف التيارات وراى حماة العربية من رجال القرويين وغيرهم في ذلك مأساة لمستقبل اللغة في روعتها الأصيلة فحدثت خفارتهم اليقظة الجبل الجديد الى الدموة لعربية عصرية تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها .

فمن أحمد بن حنبل أن زوجة أبي حميد السامدي قالت : « يا رسول الله اني احب الصلاة معك » قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك فقد دقت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها مات الشروح التحليلية واصبحت لغتها من اعمق اللغات دلالة ووضوحاً وقد وضعنا مجماً للفقه المالكي (بالفتن العربية والفرنسية (47) يعطينا صورة عن مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه الالفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالإشارة الى كلمات من حرف الالف كإبراء واتفاق العلماء والبيات الدليل والاجبار والاجتهاد والاجارة والاجر والاجل والاختبار والارتداد والاثراء والاستحقاق والاستحالة والاستماع والاشتراك والاصول والافتصاب والافتاء والاقالة واقامة الحدود والاقرار واقامة البينة والامر بالمعروف وامضاء البيع وامارة المؤمنين والاتفاق والانكار واهل الحل والعقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي نفسه حيث فرضت فاس مثلاً نظرها الخاص في قضايا قانونية وفقمية تجلت في العمل الفاسي الذي نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ السجلماسي .

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه والفتاوى وانوارل واحكام بدت ما عرفه الشرق وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والدلولات التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار المدرس الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل لتلك التمازيف (48) التي كثيراً ما تنظم شعراً يقول ابن عاصم في تحفته :

- (47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المعجم الصوفي (ص 176) .
(48) عرفت تونس أيضاً شيئاً من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة .
(49) المتوفى عام 818 هـ (درة البحال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة الى الاندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو اول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج 1 ص 294) كما نقل ابن الضابط عثمان بن ابي بكر الصدي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال علي ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) اما في الادب والفلسفة فقد ادخل عثمان بن المشي القرطبي (المتوفى عام 273 هـ) شعراً ابي تمام بعد ان قرأ عليه (ابن الفرضي ص 1249) وفرج بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » باجازة من الجاحظ (ابن الفرضي ص 286) وابو الحكم الكرماني رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71) .

الأثر الصوفي

منصور عبد القاهر البغدادي وربها تبعاً لاصحابها
على حسب الحروف الهجائية .

ويبدو لي أن انقل لهؤلاء الذين يزعمون أن
التصوف المغربي تائر بالنزعة الصوفية المسيحية -
لاسيما ماسينيون الذي زعم أن الشيخ ابن عربي
العالمي استمد من نظريات الكنيسة ما قرره
المشترق الإسباني اسين بلاسيوس من أن نزعات
دانتي (Dante) الإيطالي وأوصافه لعالم الغيب
مستمدة من كتب محيي الدين العالمي دون كبير
تصرف وكذلك اكهارت الألماني أول الفلاسفة الصوفية
الغربيين الذي نشأ في القرن الثاني لعصر ابن عربي
ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت
تمتد على الثقافة الاندلسية في الحكمة والعلوم وقد
اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (اسماء
الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية. وهاش بعد ابن
عربي بقرن واحد وجعل أسماء الله الحسنى مائة
وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل
ذلك .

وسبينوزا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه من
الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين
مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من
الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيلير في
محاضراته (ص 29) حيث ذكر أنه إذا استثنينا
ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة
القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فإنه لا يبقى
شيء بالمرة .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بان
أول من تسمى صوفياً هو أبو الهاشم الكوفي المعاصر
لسفيان الثوري ويرى السراج في اللوح (ص 22)
أن أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

وأول من تكلم في بغداد في الحقائق الإلهية
والتوحيد سري السقطي (تذكرة الأولياء ج 1 ص
274) وأول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن
معاذ الرازي المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج 1 ص
299) .

التصوف المغربي قطعة حبة من التصوف
الإسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربية
من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية .

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية
الإسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم أمثال
رونان الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه)
(Averroès et l'Averroïsme) من أن ما يسمونه فلسفة
عربية ليس إلا مجرد محاكاة أو تقليد لارسطو وضرباً
من التكرار لأراء وأفكار اليونانيين كتب باللغة
العربية (ص 7) ولكنه تناقض مع نفسه حيث
اعترف (ص 89) (بان العرب مثل اللاتين - مع
نظائرهم بشرح أرسطو عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم
فلسفة ملأ بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة
لما كان يدرس في اللسيوم) ولم يخف هذا التناقض
على أحد معاصري رونان وهو دوكا الذي ذكر في
مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين)
أنه لا يمكن لعقبة كعقبة ابن سينا إلا أن تنتج
جديداً .

وقد ضربت مثلاً بالفلسفة (50) لما بينها وبين
التصوف من وثيق الصلة حتى قيل أن التصوف
قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية
فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكر الإسلام)
وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة
الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف
بطل القصة (ص 114) بأنه (لما فني عن ذاته وعن
جميع الدوات ولم ير في الوجود إلا الواحد القيوم
وشاهد ما شاهد هاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق
من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله أن
لا ذات له يفاير بها ذات الحق وأن حقيقة ذاته هي
ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء إلا ذات الحق)
وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف
حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج 3 ص 239) ألف
تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر أبو

(50) أحمد بن عبد الله بن محمد الدزوم المراكشي نزير القاهرة جنح إلى التصوف الفلسفي ونسخ
الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان أبو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف إيا حيان
بأنه ظاهري حتى في النحو .

وأحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الإلهية تلميذ
ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذي لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزها الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربي كان له كبير اثر في توجيه وتلويح جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شدراة في مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت في المغرب في وقت مبكر - مبشرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة علي المرشد ومعمار الونشريسي الذي تحوي اجزائه نفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لآباس بها في وصف التيارات المتعاكسة التي خلقها انشااق الطرقية في المغرب .

ويطلب على ظننا ان الحركة الصوفية كانت انشط في الجبل (الاسيما الريف) والقرى منها في العواضر اللهم الا بعض مدن الساحل التي كانت مهبطا لصوفية الاندلس كسبتة واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وعاس نظرا لاشعاعها الثقافي الذي تجذب له النفوس . . ومهما يكن فان اولي التراجم الصوفية انما حظيت بها قسرى البادية ككتاب « المقصد الشريف والمنزوع اللطيف في ذكر صلحاء الريف » لعبد الحق البادسي (في القرن الثامن) والمعزى في ترجمة ابي يعزى « وائمد العيينين » لابن تجلات في مناقب الاخوين الهزميريين الذين عاشا ردحا طويلا في الهماة ثم حظي صوفية المدن بكتب منها « المنهاج الواضح » في ترجمة ابي محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميذ ابي مدين الفوث ا ومدينة اسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الادرسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتأسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) « والسلسل العذب الاحلى في صلحاء فاس ومكناسة وسلا » لمحمد الحضرمي الذي صنفه في القرن الثامن وكذلك « الكوكب الوقاد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد » .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللمطي السوسي الذي كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلب العلم وقرأه القراءان حسبا ورد في النشوف (ص 36) الذي نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « الملهمين » المنقطعين لتعلم

وقد اصبح التصوف مذهبا منظما اناء الجزء الاخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثنايا الرسالة التفسيرية والتذكرة ونفحات الانس ان صوفية هذا القرن اتخذوا القراءان والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التي بدأت تقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصاري الهروي المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بازاء العرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذي بنوا عليه قضية معراج ابي يزيد التي يقصها فريد الدين العطار في تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان في الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر في تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخي التصوف بأنه الاخذ للحقائق والياس مما في ايدي الخلائق (الرسالة التفسيرية ص 149) ووصفه ابو حفص الحداد بأنه تمام الادب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر ابو الحسين النوري ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربي ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 348) وقال ابو الحسن البوشنجي : التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدأت تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري واول خانقاه اسس لتصوفة المسلمين (على ما في النفحات ص 34) كان بالرملة في فلسطين وذكر القريري في خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات - او الخانقاوار كما يسميها - وجدت في الاسلام في القرن الخامس الهجري .

والخانقاه اهمق في التزمت والرهينة مما عرف بعد بالروايا لان هذه الخانقاهات كانت مبنية في معظمها على نظام صارم من التبذل والرهينة .

كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذلك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضامت الى التعمد بالقرءان تعبدات بالادمية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بأكملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يربط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي وقرق كان يربط فيها نحو من مائة الف من الفزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة التحلة البرغواطية .

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفاس من اشرف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على اساس فكرة مذهبية بعد الدولة المرابطية في سجناسة والدولة الادريسية في الشمال وقد نسح استعداد المغاربة الروحي المجال للعبادة الهدوية مثل محمد بن تومرت الذي اسس دولة الموحديين والمبيدي الذي قام بعده في جبل ورغة من احواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 هـ .

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس ايام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان احمد بن قسي ابني مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالباطيل ، كما ادمى النبوة ابراهيم الفزاري الساحر .

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسيحية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العثمانيين بتقصده وفي طلبعتهم الامام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة الا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تنسب بالطابع الطرقي الا انها من المذاهب

التي اوتكر انتحالها على مذهب صوفي اساسه التأويل الرمزي للقرءان على طريق الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام ! . . ومنها الطائفة الاندلسية التي اسسها محمد الاندلسي نزيرل مراكش وكان رجلا مولما بالطب والكيمياء نسب الائمة فافنى فقهاء الحمراء بتخليبه وزج به السلطان في غياهب السجن .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تصف اذ ذلك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشي الذي صنف كتابا في البدع والمعادنات في رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين !

فنحن لا نكاد نجد اثارا بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان نعتز فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوي نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذلك مطبوعا بالسطوة ولم يكن الصوفية يختلفون من بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرءان وسرد المآثور من الادمية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة ومن القرءان من ذلك بعض الاحزاب لاسيما احزاب الشاذلي التي تتألف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقعة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي الا اذا جاء ذلك مفوا عن طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرءان والجهاد فاذا طالمت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيرا من رجاله كانوا « معلمين » او مدررين يعلمون القرءان للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والابفال في لسن المرقعات واندساس

(51) عدد الربط والزوايا في سبعة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارياض (اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéris م 12 عام 1931 ص 155 .

الإدعياء في صفوف النزهاء حتى كان التشييري ينشد
إذا جلس إليه الصوفية وعليهم الهيئات والمرقصات
أياماً منها :

أما الخيام فأنها كخيامهم

وأرى نساء الحي غير نساها

ثم يقول أما الهيئات والمرقصات لمعروفة وأما
القلوب فمفكرة وكان الجنيد ينشد :

أهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مخرفة

صار التصوف ركوة

وسجادة ومدلقة

غير أن الفكرة الصوفية ما لبثت أن تشعبت
فتسرب إليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن
الهجري على اثر انتشار الطريقة واندساس الأدعياء
في الزوايا والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصوفي
لأغراض لا تمت إلى الروح بصلة وأصبح التصوف
عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل إلى
أمراض الدنيا من طريق السحرة والتدليس على
العوام والدهماء فتجردت الطريقة من شتى مظاهر
الرواء والسمو والجاذبية والجمال

وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ
القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المتجددة
وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتسع إلى أواخر
القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت
الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من
التأليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم .

والحقيقة أن التصوف بدأ يتدهور منذ أصبح
في متناول العوام تلوكة سنتهم في غير هدى ولا
اتزان ولن أضرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة
أبي محمد صالح دفين أسفي وتلميذ أبي مدين
الفوت فقد كان أماً ذائع الصيت يرد عليه الصوفية
حتى من مصر للاخذ منه وانتشرت طريقته خلال
القرن السابع فكثرت تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة
حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

ففا بي على الجرءاء من جانب الغرب
ففيها حبيب لي بهم به قلبي

غير أن طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما
لبثت أن انحرقت بما دسه فيها الدخلاء والإدعياء
وأصحاب الأفراض من الدجاجة والمبسين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه
« شفاه السائل » فرد الطريقة إلى أصولها وحل
خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الأدعياء .

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية
الإمام الناقد الشيخ زروق بكتابه « عدة المرید الصادق
من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث
الوقت » ، وقد علل انتشار المثلثة والإدعياء بانتقاص
الإيمان والجهل بأصول الطريقة وامتقاد أن الشريعة
خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادئ الرندقة)
وحب الرياسة مع الضعف عن أسبابها ثم أكد أن
الصوفية الحقيقيين أنفسهم عرضة للخطأ وأن
مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة وأن
الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف إلا
بفقهه .

وقد تعرض إلى الأسس العملية التي بنى عليها
الطريقون مددهم فذكر أنهم قرروا مخالفة النفس
بكل وجه وغلطوا في هذا الإطلاق لأن المقصود موافقة
الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد
بقول عمر بن عبد العزيز :

« إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالريد »

وأنهم تجردوا عن المعتادات بدلاً من الإنس
بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية
وإدخولها على أنفسهم المشاق والأجر على الإتيان لا على
قدر المشقة وقد أشار إلى الفتننة التي وقعت في
الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ
حتى تضارب الناس بالنمال وكتبوا إلى البلدان
الإسلامية يستفتون ولا شك أن شيبوب شك
الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن
الجادة وتدخل العوام في وقائعه ، كما كان أبو
الحاسن الفاسي ينهي عن ذلك مؤكداً أن كتب
الحائمي وأبن الفارض « تسد على الناس باب الفتح »
حسب تعبيره ويدعو إلى الإدمان على حكم ابن عطاء

الله . والشمراني (52) نفسه كان ينهى مرديسه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربي فانه احتسب هناك - كما يقول زكي مبارك - حين اقتنع المرید بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفا للشرع انما هو من وضع الدسائس .

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعواء على ادمياء الطريقة ورسوم لنا صورة مما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من اندس في حظيرته من مفرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون او معتوه او موسوس او ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الالهام .. وقد يشايه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص 39) ومن الحرب ما حكاه اليوسي (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البداية المغربية اكثر ابغالا في الابتداء واشد انحرافا عن الروح لغلبة السداجة على اهلهما الذين كانوا يلفون في التبرك بالآثار الصالحين حد الشلوذ .

وفي القرون الاخيرة اختلفت المقاييس وتشتت الدعاوي واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم هرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم بأهل الخواطر يتجمعون بأحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتاويلها غير ان علماء الصوفية كانوا حريصين على فضح الدجاجة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاهراض الدنيا وحطامها على ان دعاء السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن

الجوزي من المشاركة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتأخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش الر بتريته الصوفية في الاستاذ وبطل هذا التأثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تلييف السر بأنواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار « انه لكثرة الانهماك في الذكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج (اي الاستاذ) عن حسه ويروج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما « قرنة عين الاستاذ » على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير ان جمال الدين الافغاني « خلق محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانتطاع الى التحنن والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بأنه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامح ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الابداء واشرف سيلقى الصوفية بهم راضين مبتسمين اما نحن فنسندهم الى النار في ركاب امريء القيس الذي انلده الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعد (القاعدة رقم 59) .

(52) ذكر الشمراني في « تنبيه المفتريين » (ص 7) ان بعض الناس دس في كتابه البحر المورود في المواليق والمعهود وفي مقدمة كتابه « كشف الغمة من جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة واثار ذلك فتنة في الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصيلتين المجازيتين من بعض مشايخ الاسلام الى العلماء الازهريين للاطلاع عليهما وقد اشار الشمراني في كتابه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وقرءاء عصره مما يخالف السنة حتى اصبحت اصول التصوف قريبة عند منتحلي الطريقة

المصر ذروتها . لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بني وطاس من ميع وانحلال .

فقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس نعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين واغلب ما فى الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الروايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للامة فى اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفى ايام زيدان تضعف نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر فى كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيما حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء التمهدين وهو احمد بن ابي محلى الذى توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام .

ولما استقر الملوك العلويون بالنفوذ فى المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها فى بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجيز مقلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التى لم تكن فى ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القرمان والاذكار والدعوات فلم ير المولود ما يدمو الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار اسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التى كانت تسري فى هذه البيوت الطاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي اى الفلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلفت مقالاته السيادة فى قرارة النفوس فقومت اودها طوال اجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بيمس خاص افرقت منه الحقيقة الصوفية فى قوالب شرعية وروح التوكل فى صورة السبب ولطائف الروح واسرار النفس فى اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري - ويمكن

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان قطاب التصوف كانوا فى نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العنوم وقد ذكر صاحب « نشر المثنى » انه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب فى القرن الحادى عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي ابيكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذى تبلورت فى هذه الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا - كما قيل - تلاميذه وقد قيل فى العربي ابن ابي الحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وهمه ابو زيد الذى افاض ابو العباس المقرئ فى وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسوطي لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقيس الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقرئ تكلم فى طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون فى التصوف « اقامة المريد » و « رحلة المتبتل » و « كتاب الحقائق والرفائق » الذى شرحه زروق .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة فى ربوع المغرب لاسيما البادية ولا يخفى ما اسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من اباد بيضاء فى هذا الباب وقد كان فى زاوية محمد بن وسعدن السوسي تسمانة طالب يكسيهم ويظمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه اربعين سنة .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو الحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفى آخر حياته نفى يده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف واهل الحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق او كادت لخروج الناس لمقابلته .

وهذا النفوذ الذى كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين الى امتحانهم حيث استدموا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف و ابي الحكم بن برجان و ابي مدين الغوث .

وقد هدات نوعا ما حركة الامتحان فى عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التى بلغت فى ذلك

القول بأن نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ من العالم الأدنى ليرقى الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل انانيته فتتكشف في باطنه حقائق وتحتاج في سره وقائق

وتعرض له احوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمهمود وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد أي في التوحيد لان الغناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق - كما يقول الشيخ يوسف - عرف ومن لم يدق لسلا حرج اذا سلم واهترف وهذه طرائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم منك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك) .

وقد تجلى ابرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في اقرار التسامح والسلام في المجتمع واسماف طبقاته المعوزة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس فهناك مذهب صوفي مغربي بعث يرجع الفضل في وضع اسمه ونشر دعوته لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبتي (53) الذي كان يبرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الاسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مرددا بكلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل)
وقد اشتهر مذهبه ايما اشتهار حتى نمته مفاصره الحاشي في فتوحاته الكمية بصاحب الصدقة في مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة الرها فأسست الملازم في مختلف انحاء المغرب حيث كان ياي المعجزة

والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراسح الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فأسسوا الزوايا في الفلوات لا يواها عاري السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه « شفاء السائل » حيث قال : « وقمني بعض الاخوان ابقاهم الله على تقبيد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهاد والفقهاء والمباد يخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك يزار وبغار العلم والدين تزخر وثواب الله بعد لانصار دينه وخلافته ويدخر طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلمنا من الكتب الموضوعه لاهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالمة العلوم والامتداد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالاحياء والرهابة ام لا بد من شيخ يبين دلالته ويحذر لهوائه ويميز للمريد عند اشتباه الوردات والاحوال مسائله فتتزل منزلة الطبيب للمرضى والامام العدل للامة الفوضى » .

ثم تحدث من اغراض التصوف ومصطلحاته فقال : « نبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض » فمن ذلك تحليله لتكشف عند الصوفية بقوله : « وبيان ذلك ان المبصر اذا رأى شخصا ثم همضت الاجفان دونه بقي متخيلا ثم اذا فتح اجفانه مرة اخرى رآه كما كان فبين العاليتين كشف »

وقد تحدث باسهاب من هذه المصطلحات فقال : « اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة من الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم في مفاوضتهم والفاظ مخصوصة بمكان من

(53) وجه ابن رشد الى مراكش هالما قرطبيا لدرس نظريته التي لاحظ انها مرتكزة على المبدأ القائل بأن « الوجود ينفع للوجود » وقد لاحظ التادلي في منحق التشوف (الاعلام للمراكشي - فاس 1355 ج 1 ص 240) انه « يرد اصول الشرع الى الصدقة » وكان القراءان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض - كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة » وكان يمبر رفع اليدين للتكبير للتخلي عن كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالخروج من كل شيء وان سر الصوم الجوع وتذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل .

غير ان هذه المصطلحات الصوفية المتعددة لم يدخل بعضها للمغرب الا في عهد المرينيين ضمن التراث الاندلسي اذ ان كتب التصوف قبل القرن الثامن كانت اشبه بكتب السير محشوة بآيات الوعظ القراءانية والاحاديث والاذكار النبوية

من ذلك ما عزز به التادلي الفكر الصوفي في كتابه « التصوف في رجال التصوف » (وقد شرع في تصنيفه عام 617 هـ أي ماخر الموحدين) من رأي قراءانية تصف التقوى والخشية والمعرفة الالهية مثل قول الله تعالى : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وقوله : « وعلّمناه من لدنا علما » ا ومنه العلم اللدني) وقد روى احاديث وغيرة لدمم نظريات الصوفية ومصطلحاتهم منها كلمة الابدال في حديث انس بن مالك عن الرسول عليه السلام وقد ذكر الابدال فقال « كلما مات منهم واحد ابدل الله مكانه من المؤمنين واحدا » . ومنها التوسم في الحديث الذي رواه البزار عن انس « ان لله عبدا يعرفون الناس بالتوسم » وقد انتشرت هذه اللفظة بالمغرب عوض الفراسة حتى قيل في العامية « فلان موسوم بالخير » .

ومنها الحثالة في حديث مرداس الاسلمي « يذهب الاولياء الصالحون الاول فالاول وتبقى حثالة كحثالة الشمير او التمر لا يبالي الله بهم » (البخاري - كتاب الرقاق - باب ذهاب الصالحين) .

وتجديد مفهوم «الولاية» نفسها مقتبس من الحديث فقد روى البزار عن ابن عباس : « قال رجل يا رسول الله من اولياء الله ؟ قال : الذين اذا رؤوا ذكر الله » (55) ومن مظاهر بساطة الاسلوب الادبي في هذا العصر ما حدثنا به التادلي عن ابي زكرياء الجرجاني الذي كسر رجل قنفذ سهوا بقوله : فربط رجله بجائر وادخله في خايبة فكان يستقيه الماء ويطعمه التين والزبيب الى ان انجبر فذهب .

وهذا النص صورة لبساطة اسلوب الادب الصوفي في القرن السابع حيث لا يحتوي على اي لفظ تجفوه السنة العامة .

وقد حفلت كتب الادب وحتى الفقه بالتماييز الصوفية من خلال الادعية والتوسلات والابتهالات فمن ذلك قول عياض : « الحمد لله المنفرد باسمه الاسمي

طريقهم كالمقام والحال والفناء والبقاء والمحو والايات والنفس والروح والسر والبوادة والهواجم والخطاير والوارد واللوامع والطواع والتلويح والتمكين والفرق والجمع وجمع الجمع والدوق والشرب والغيبة والحضور والمحو والسكر وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاملة والمنازلة والمواصلة وعلم المعاملة وعلم ونشر الى شرح هذه الالفاظ .. وهنا بدا ابن خلدون يستخلص من كل معنى تفاريمه الصوفية بعبارات لها مفهوم دقيق يدل على الاطار الخاص الذي استعملت فيه ومسئ هذه الالفاظ الارادة والتوبة والتقوى والورع والزهد والقناعة والتوكل والخشوع والتواضع والشكر والصبر والمراقبة والرضى والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والمحبة والشوق والانزعاج وانرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والانس وهي كلمات قراءانية تحدد النطاق الصوفي ومدلوله الاسلامي في المغرب ويدل اندراج معظمها في اللسان العامي في المغرب بنفس المفهوم ان القرآن كان هو المصدر الاول الذي زود المعجم الصوفي بكلمات تفرمت عن بعضها كثير من الاشتقاقات وبذلك يكون القرآن قد امد الفكر الصوفي بالفاظ لم يوسق ماسينيون في حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلي والاستماع والاستقامة والاستواء والاصطفاء والصدق والاخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللوامة والامارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق وقد افغل المستشرق الفرنسي مات الكلمات كما يتجلى ذلك بوضوح من الالئحة الابدعية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرآن (54) يضاف اليها ما تطورت معانيه من طريق النحاة كالضمير والمحقق والاشارة والمجاز والافتران او المتكلمين كالعقل والمعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة والقدم والثبوت والوجود او ما في الاثر والحديث كسبحات الوجه والحدة البيضاء والكبريت الاحمر والاسم الاعظم والديك الابيض وعتقاء مغرب ومقلب القنوب وسبحات الجلال والقطبانية والغوية والفردية والابدال والاوراد والنجباء والنعباء او ما تسرب الى العربية من دخيل يوناني او فارسي او ارامي منذ صدر الاسلام او العهد الجاهلي كالافلاك والاكوار والازياج والمهرجان والدستور والكناش والترياق والديوان الخ ..

(54) راجع كتابنا « المعجم الصوفي » و « المعجم الصوفي من القرآن »

(55) سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب 4

يا من خزائن رزقه في قول كن
امتن فان الخير عندك اجمع

وقول السجاسي (57) :

طيب يذكر الله فاك فانه
لاجل ما فاهت به الانواء
ما لفتنى لا يرعوى وصباحه
ومساؤه يعطانه بسواه
تلقاه تياها على من دونه
ولسوف يعطشه الذي ارواه

وقول العلامة سيدي العربي بن السائح رضي
الله عنه مشيرا الى طريق الصوفية التي كنى عنها
بالاتاي (وهو الشاي في لغة المغرب)

واصل شراب حليفة الامجاد
واترك مقال احي هدي وعناد
صفراء تسطع في الكؤوس كانها
من مسجد عصرت بأعصر عاد
تدعى الاتاي وذاك رمز ظاهر
يدريه من يدري من الامجاد

وقد كنى ايضا عن الطريق بالقهوة مستعملا
الجناس بين اللون (لونها) والنهي (نهي) حيث قال :

اشرب اخي قهوتنا
ولونها اولوا النهي
ولا تامل لساذل
من لونها لسونها

ومن قول العراقي علي نسق ابن الفارض :

اتطلب ليلي وهي فيك تجلت
وتحسبها فيرا وفيبرك ليست

المختص بالملك الامر الاحمى الذي ليس دونه منتهى ولا
وراه مرمى الظاهر لا تخيلا ولا وهما الباطن تقدسا
لا عدما وسع كل شيء رحمة وعلما « وورد من
تسيبحات المهدي ابن تومرت : « سبحان من ارسى
مهاد الارض الشامخات وارتفعت بقدومه السماوات
ودبر الارمان بالنور والظلمات وتكدت لجلاله
الغايات .. الخ » . ومن مناجاة ابي العباس السبتي
« اللهم افضلت نعم افضالك وانمت نعم نوالك
وفرت الذنوب فتكامل احسانك وسترت الميوسب
فتواصل غفرانك .. الهي كيف يحيط بك علم خلقت
ام يدركك بصر انت شققت الخ .. » . ومن ادهية
سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ ابي الحسن
الشاذلي امام التصوف بمصر : « اللهم صل على من
انشقت له الاسرار وانفلقت الانوار وفيه ارتقت
الحقائق وتنزلت علوم اادم فاهجر الخلائق وله
تضاءت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق
فرباض المنكوت برهر جماله موقنة وحياض الجبروت
بنيض انواره متدفقة » ومن احزاب الشاذلي « انهم
انك تعلم اني بالجهالة معروف وانت بالعلم موصوف
يقدرت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك
برحمتك » .

ومن الاندلسيين الذين عاشوا في المغرب واثروا
اسمائه الصوفية ابن الخطيب (56) السلطاني الذي
استجلى بروحه الوفاة الشاعرة مخابر الفن والجمال
فقال : « الحب الحقيقي حب يصعدك ويرتفعك
ويخلدك ويبقيك ويظمك ويستيقك ويخلصك الى
قبة السعادة ممن يشقيك » . اما في الشعر فقد
سقنا في القسم الادبي من عناصر تطور اللغة ومن
نتفا رائعة لا يمكن فعلها عن الادب العام ومن شعرا امام
السهيلي الذي اصبح الخاصة والعامه تلهج به :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع
انت الممد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشائد كلها
يا من اليه المشتكى والمفزع

(56) في كتابه المخطوط « روضة التعريف بالحب الشريف » وقد نشر المقرري جزءا منه في نفع الطيب
في ترجمة ابن الخطيب (راجع كتابنا « الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب » الذي نال جائزة معهد
مولاي الحسن بتطوان عام 1947) .

(57) الذخيرة السنية ص 55 وقد انتشرت في المغرب الحكم المطايبية وتداولتها الالسن وشرحها من
المغاربة الكثيرون واصبحت تجري حتى على السن العامة منها « من لا ينفعك لحظه لا ينفعك
لفظه » .

وقد استوثق التبادل بين المشرق والمغرب في هذا المجال في مظهرين اولهما انتشار طريقتين صوفيتين مغربييتين لكل من ابي الحسن الشاذلي الفماري وعلي بن ميمون الفاسي صاحب كتاب « متفقهة ومتفكرة مصر والشام 1581 بالاضافة الى نفوذ احمد البدوي الفاسي دفين طنطا ، وثانيهما انتشار مصنفات صوفية شرقية بالمغرب ككتاب الحكم المطايع الذي صار الناس يحفظونه من ظهر قلب وقد حل على علماء في شروح وفيرة كشروح ابن عباد وزروق والقلصادي ومحمد جسوس الفاسي والحراق وابن عجيبة التطواني ومحمد بن عبد السلام بناني والشيخ الطيب بن كيران الخ . . كما تبودلت رسائل منها جواب الشيخ الغرواني عن امثلة الناصر اللقاني المصري وهي نموذج للتاويلات الصوفية المغربية للقرءان اما القصائد المغربية التي اصحبت تجري على السنة العامة فكثيرة منها ارجوزة حدائق الازهار في الزاوية الليازغي والمقباس للوزير الفسائي ودبوان الحراق الذي نحا فيه منحى ابن الفارض وابن عربي وعبد الفنى التابلسي في وحدة الوجود والتلبس بما يسونه الحقيقة الحمديية وبعلو نفس الحراق احيانا فيكاد يطول سلفه ابن الفارض في رقة الاسلوب وسمو المعنى ومما يتسم بالتحصوف العام قصيدة لاحمد الشريشي السلوي الشاعر الطبيب وقد شرحها كل من احمد الصومعي واحمد ابن ابي الحسن الفاسي وهناك كتاب يمكن ان يعتبر خلاصة للادعية النبوية التي جرت على السنة الصوفية بعد القرن التاسع وهي دلائل الخيرات الذي شرحه افراد من العائلة الفاسية وقد انتشر في العالم الاسلامي هو وذخيرة المحتاج للشيخ المعطي الشرقي وقد نحا المغاربة منحى الصوفية المشاركة في مدح الاشياخ بقصائد لا تخلو من معلومات تفيد المؤرخ من ذلك دالية اليوسي في مدح سيدي محمد بن ناصر الدرعي وهي « مشهورة بين اهل الادب » عارض بها دالية البوصيري في ابي الحسن الشاذلي وابي

الم ترها القت عليك جمالها
ولو لم تقم بالذات منك اضحلت
بديعة حسن ولو بدا نور وجهها
الى امه اضحى يرى كل ذرة
عزيز لقاها لا ينال وصالها
سوى من يرى معنى بغير هوية
اذا شئت ان تلقى السعادة والمنى
وبلغ ما منه الرجال تولت
فظهر بماء الذكر قلبك جاهدا
بصدق اللجا وانسله من كل هلة
ويمكن بكف الشرع امسرك كله
فدونك ان لم تفعل الباب سدت
فنور سرى في الكون صورة احمد
به تهندي لله كل الخليقة
ولسيدي فدور العلمي من المتأخرين : وهو من
المحور المنبس من القرءان مع تحريف بسيط :
سبحان من قضى وحكم
وعلم الانسان ما لم يعلم
سبحان الدايم بالادوام
من لا يسهى ولا ينسام
مول القدرة مول الحكام
الساكن نقلوب المومنين
سبحان الواحد الوحيد
سبحان المالك المجيد
يفعل فملكو ما يريد
ما له شريك ولا عوين

(58) المتفكرة كالتصوفة وهم الذين يتصنعون الفقر وهو التصوف بلغة المغرب وهي من الآية الشريفة « يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله » . ويظهر ان السبب في اقبال صوفية المشرق على كل ما هو مغربي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (باب الامارة) : « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » وقد كتب ابن حجر في فتح الباري على هذا الحديث مشيراً الى رواية اخرى عن احمد انهم ببيت المقدس بدل المغرب وكذلك عن الطبراني بهذه العبارة « يناقشون على ابواب بيت المقدس » وفي هذا اشارة مبيقة الى الوضع الحاضر .

تخلو منه زاوية او دباط وخاصة بمناسبة المولد النبوي الذي بدأ العربيون يحتفلون به في سبتة ثم مالوك بني مرين في باقي الحواضر وبذلك اندرج عنصر جديد طور لغة الضاد بالمغرب وطبع اللسان الدارج وخاصة منه البربري الذي اقتبس ما كان ينقصه في هذا المجال فتقاربت الشقة بين الفصحى والعامية في اللسانين .

المباس المرسى وقصيدة البوصيري هذه تدل على ما كان للصوفية المغاربة من مكانة في نفوس صوفية الشرق (وقد مدح البوصيري كذلك ابا محمد صالح (59) بالتصوف وان كان قد اهترأه شيء من الانحلال فقد كان له كبير الأثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة فأصبح الشعب يلجج بالادعية والاذكار ويتلو قصائد الغزل والمديح في سماع لم تعد

(59) كان قطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهرة كثير الامتناء بأصحاب ابي صالح الوالدين على مصر .

□

